SHA'IR AL-TAYYARAH FAWZI AL-MA'LUF

PJ 7846 .A557 Z83 1948 c.1

BOBST LIBRARY
3 1142 01706 5841

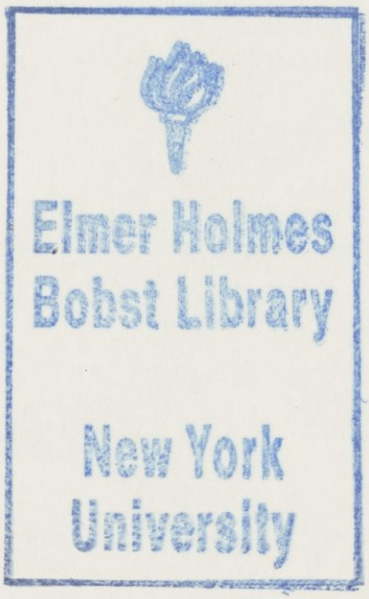

Badawi al-Mulaththam

(Shā'ir al-ṭayyārah
Fawzi al-Ma'lūf)

البَدَوِيّ المُلَثَّم

شاعِر الطيارة

فوزى المعلوف

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

PJ
7846
.A537
Z53
1948
c.1

NYU BOBST-PRESERVATION
P-9162 NY2793

01706 5841

تقدمة المودة والولاء الى أخي الحبيب
الاستاذ فارس زيني رعاه الله
يعقوب العودات
(عمان - شرقي الاردن) (البدوي الملثم)

شاعر الطيارة المرحوم فوزي المعلوف

بكيتُ على سربِ القطا إذ مررن بي ... فقلتُ ، ومثلي بالبكاءِ جديرُ !
أسربَ القطا هل من يعيرُ (جناحَهُ) ؟ ... لعلّي إلى من قد هويتُ (أطيرُ) !

الشاعر العربي

« ... إن فوزي المعلوف كأنبياء التوراة ،
علّق ربابته على غصن صفصافة لتعزف
على هوى الريح ، ناطقة بما في لغة الطبيعة
من نبرات خفيّـة تهمس بها الألوهة »

فرنسيسكو فيلوسباسا
أمير شعراء الإسبان

الإهـــداء

إلى الذي نهكته داهيات الخطوب
والد « فوزي » الحزين
العلاّمة عيسى إسكندر المعلوف
و إلى التي ناشتها عوادي الأيام
فاتشحت بالسواد حدادا
والدة « فوزي » الفجيع
السيدة عفيفة المعلوف
وهي تردّدُ على مسمع « البردوني »
الباكي في خريره ، الشاكي في هديره :
يقولون : صبراً ، لا سبيل إلى الصبر
سأبكي . . . وأبكي . . . ما تطاول من عمري ! !

القدس — فلسطين

البدوى الملثم

رشحات قلم

كان أول ما استوقف نظري واسترعى التفاتي إلى الشاعر الساحر فوزي المعلوف عدد من المقتطف خرج للناس عام ١٩٢٩ وفي صدره قصيدة للشاعر المعلوف، بعنوان « غرناطة . . . ! » جاءت نشيداً حلو النغمات . ومنذ ذلك اليوم بتُّ أتوسم في فوزي شاعراً تفخر به العرب، ونابغة يتيه باسمه الجيل الجديد، ويجر أذيال الزهو وأردان الفخار !

ولبث توسمي هذا يتسع في رقعته ومداه، حتى أُتيحت لي زيارة والده الشيخ الجليل عيسى إسكندر المعلوف في زحلة، وهناك جلوت نواحيَ كنت أستهدف جلاءها . وما إن أطلَّ يوم رحيلي حتى بادرني العلامة المعلوف بنسخة من ملحمة « الطيارة » أو « على بساط الريح » أنيقة الطبع كانت لي — على حدّ تعبيره — زوّادة طريق .

وفي دارة الأهل عكفتُ على مدارسة الأثر المعلوفي الخالد، فتبدّت لي نواحٍ أثارت

في النفس عوامل الإعجاب بشاعر حمل قيثارة العزاء في ليل العرب والإسلام ، ثم ما لبث أن جفا هذا العالم الجاني ، وهو لمّا يزل غض الإهاب ، موفور الشباب !

ولقد كنت قطعت على نفسي العهد في تصنيف رسالة أتناول فيها شعر فوزي وفلسفته ، فلبثت الفكرة تساورني ، والعهد المسؤول يمعن فيّ دقا ووخزا حتى كانت هذه الرسالة . . .

القدس — فلسطين

البدوى الملثم

فوزي المعلوف

١٨٩٩ — ١٩٣٠م

نشأته وخلاله

أستطيبُ الحديث وأتشهّاه ، كلما سنحت الظروف وواتتني المناسبات ، عن شاعر نابغ مرَّ بهذا الوجود مرًّا سريعاً وانطلقَ كالنسمة الغادية العطرة ، أو نغمة الغناء العذبة ، أو لحن الموسيقى الجميل ، ومضى إلى جنة الخلد هازجاً بالشعر ، لغة السماء والخلود ، وقد ألهمته عبقر* بأنفاس علوية عبقة ، متضوعة التناغيم ، متساوقَة التقاسيم ، يؤلف كل نغم « جازاً » و « رباباً » فغنى فوزي على قيثارة واحدة مترعة الأوتار ، وكان لمختلف أغانيه تلك النبرات الحية التي لها صداها العميق البعيد في القلوب .

لكن الضاد — أم اللغات — فقدت فيه أديباً فذًّا واسع الخيال ، مديد الأفق ، وشاعراً مرهف الحس يصح أن نعدّه من خير مَن يتمثل فيهم لقاح الثقافتين الشرقية والغربية في أدبنا المعاصر .

---

* يزعم العرب أن (عبقرا) قرية تسكنها الجن وإليها ينسب كل جليل فائق .

وها قد مضى على وفاة هذا الشاعر المجدّد ثمانية عشر عاماً ولا يزال الأدباء في المواطن والمهاجر يتناقلون روائعه ويستبقون إلى مدارسة آثاره ونشرها، وفي كل يوم يحسر لنا الباحثون اللثام عن رائعة جديدة تتلوها روائع . . . « حتى درسوا[1] شعره من نواحيه كافة، وحدثونا عن ابتكاراته وأسلوبه ومعانيه الموفقة وألفاظه السحرية، وقرروا أن فوزي منحة علوية خصَّ الله بها الشعر العربي، وأن أسلوبه حمل الشعر العصري إلى اتجاه جديد » وطبعه بطابع السمو والتجديد، وأجمعت آراؤهم على احترامه والإعجاب بنبوغه. ولم يتناوله قلم بنقد لاذع، إذ لم يقف باحث في آثاره على ما يؤاخذ عليه الشاعر، حتى إن النقادة المجدد الدكتور طه حسين بك سطَّر فصلاً ماتعاً شذيًّا عن شعر فوزي وروائعه، يتمنى الكثيرون من شعراء اليوم أن يموتوا ليكتب عنهم عميد الأدب العربي ما كتب عن فوزي. وإليك نبذة[2] مما كتبه المعري المعاصر:

« مرَّ فوزي المعلوف بالأرض مرًّا سريعا، ولكنه ترك في النفوس صدى يتردد فيها حلواً لاذعاً محرقاً معاً؛ ولا أعرف أنني تأثرت بشاعر كما تأثرت بهذا الشاعر الشاب حين قرأت قصيدته « على بساط الريح » فاهتزت لها نفسي اهتزازاً، وانشقَّ لها قلبي انشقاقاً؛ ثم قرأتها اليوم فوجدت لقراءتها مثل ما وجدت أمس، أو أكثر

(١) الأستاذ أنيس نصر (حلب) في عدد (الضاد) الممتاز ١٩٣٥

(٢) جريدة (الوادي) المصرية: العدد ١٠٣٦ تاريخ ١٨ تموز (يوليو) ١٩٣٣

مما وجدت أمس ، وما أرى إلا أني سأقرأها وأقرأها وسأجد في قراءتها في هذه المرة اللذة التي يجدها الأديب حين يقرأ الشعر الجيد الرائع الجميل ، بلى أذكر أني قرأت هذا الأثر مرة حين قرأت منذ أعوام مقطوعات من الشعر الفرنسي نشرتها «الألستراسيون» لشاب أميركي أحب فرنسا وتطوع للدفاع عنها أثناء الحرب ، وتغنى في شعره الفرنسي الحلو بجمال تلك الأرض التي كان يدافع عنها والتي تنبت خير ما ينبت في فرنسا من الكرم وتؤتي خير ما تؤتيه كروم فرنسا من الخمر . وكان ذلك الشاعر الأميركي الشاب يحسّ أنه سيموت ، وكان يقدر أن جسمه سيمتزج بثرى ذلك الإقليم الفرنسي إقليم «شمبانيا» وسيغدو ما سينبته ذلك الثرى من الكرم، وسيشيع في ما ستؤتيه تلك الكروم من الخمر ، وكان يسبق الزمان فيمزج نفسه بالفرنسيين ، وكان يسبق الزمان فيمزج نفسه بما سيلقاه الفرنسيون من النشوة والفرح ومن البهجة والسرور حيث يشربون ما سيؤتيه ثرى شمبانيا من النبيذ .

وكنت أقرأ هذا الغناء الحزين اللاذع فأجد لنغمته لذة حزينة لاذعة كهذه اللذة التي وجدتها أمس ووجدتها اليوم حينَ قرأت قصيدة ذلك الشاعر اللبناني الشاب . ولستُ أعرف من أمره شيئاً إلاّ أني سمعتُ اسمه من أبيه الحزين حين كان في مصر أثناء الشتاء ، ثم حدثني عنه المحدثون في هذه الأيام حين أخذت في درس الشعر العربي الحديث .

ثم حمل إليّ بعض الأصدقاء قصيدته هذه ، ثم قرأت هذه المقدمة الطويلة

الغريبة التي قدمها بين يديها بعض المستشرقين، ثم أعرضت عن هذا كله، وأخذت أقرأ القصيدة نفسها، فأي روح عذب، وأي نفس حلوة، وأي سحر خلّاب، وأي فن رائع، وأي موسيقى خليقة بالبقاء!

لقد قال لي الناس: إن لهذا الشاعر مجموعات أخرى من الشعر، وأنا أرجو أن أوفق إلى قراءتها أو إلى النظر فيها؛ فإن من الخير بل من الواجب على الذين يعنون بالشعر العربي الحديث أن يدرسوا شاعرية هـذا الفتى درساً مفصلاً دقيقاً ليروا كيف نشأت! وكيف تطورت! وكيف انتهت بصاحبها إلى هذا الشأن العظيم من الإجادة والإحسان!»

... إلى أن قال في ختام مقالته ما نصُّهُ:

«لقد خسر الشعر العربي الحديث بموت هذا الشاعر الذي لم يكن يتجاوز الثلاثين، ولـكن الشعر العربي الحديث قد ربح بهذه الحياة القصيرة ربحاً ما أحسبه يقدره إلى الآن. ولعلّ مما يعزّي أن يكون بعض الشعراء المصريين، قد عرف لهذا الشاعر قدره ووصف قبره هذا الوصف المؤثر الذي تقرأه في ديوان «الملاح التائه» والذي يقول فيه الأستاذ علي محمود طه قصيدته «قبر شاعر*»... ومن الحق أن نسجل هنا ما سجله الشاعر نفسه من أن هذه القصيدة إنما هي من وحي

* ديوان (الملاح التائه) — ص ١١٩ ومطلعها:

رفت عليه مورقات الغصون وحفه العشب بنـواره
ذلك قبر لم تشده المنون بل شاده الشعر بآثاره

فوزي المعلوف ، فقد قالها الشاعر بعد أن سمع شيئاً من القصيدة التي تحدثت إليك عنها » . اه

***

ولد فوزي في زحلة — جارة الوادي — يوم ٢١ أيار (مايو) ١٨٩٩ ولم ينسَ تذكر هذا الشهر الذي رأت فيه عيناه النور فكتب قبيل هجرته إلى البرازيل على إحدى مفكراته :

« . . . خلقت في أيار ، في حضن الربيع ، والأرض بما فيها زاهية باسمة ، وأنا فوقها منقبض النفس، مقطب الجبين ، وما أمرّ العبوسة في محيط الابتسامات ! لذلك أتمنى أن يطرحني الدهر عند موتي في حضن الخريف بين اصفرار الأوراق وذبول الأزهار و بكاء السماء ، حينذاك قد أبسم عند عتبة الموت غير آسف على فراق حياة قطعتها في خريف صامت ذاوٍ . . . وتركتها في خريف صامت ذاوٍ . . . » .

كان فوزي يخفي تحت كل ابتسامة حرقة حتى إنه قبيل وفاته بأشهر قلائل ، والأماني تفترّ له من كل جانب ، أنشدَ يوم عيد مولده :

بسمةَ الأهلِ — يومَ نُولدُ حُولِي عَبَراتٍ — على المهود !
دمعةَ الأهلِ — يوم نُلحدُ سِيلِي بَسَماتٍ — على اللحودِ !

في هذه الصورة العابرة أتناول مولد فوزي ، على أن أجلو هذه الحرقة وتلك

الكآبة عند حديثي عن تشاؤمية شاعر الأمة المشردة ، إذ ستراه يمقت يوماً قيل فيه : « ولد الفتى للحياة[1] ! »

تعلّم فوزي القراءة وهو في الثالثة من عمره وأحسنها في الخامسة ، وراسل أباه من زحلة وهو في الثامنة ، وقد كتبَ عن هذا الطور في مذكراته :

« . . . كنت كثير الحياء ، بسيط القلب طاهره ، أتجنب غالباً رفاقي وأجنح إلى العزلة ، غير ميّال إلى الألعاب ، تتكاثف السويداء في أفكاري ، فأبعد عن المجتمعات ، لا أحب أسر حريتي . وكنت في المدرسة حاضر الذهن قوي الذاكرة ، فضولياً في معرفة الصحيح ، وأميل إلى اللغة العربية وإلى الشعر العربي على الخصوص » .

يرتقي أول نظم فوزي إلى منتصف عام ١٩١٣ حيث شطّر في الكلية الشرقية بزحلة بيتين « للأخطل الصغير » أوردها على علاتهما « تعللاً بجميل ذكرى[2] الحداثة والصبا » :

« زَحْزِحْ لثامَكَ عن جبينِكْ » وابرزْ كليثٍ من عرينكْ
وانفثْ بشهدِكَ في الحشا « وابعثْ بسحرٍ من عيونِكْ »
« واسكبْ شعاعَكَ في قلو بٍ » تهتدي بِسَنا جبينكْ

(١) من مقال للأب العالم جبرائيل أبي سعدى (القدس)
(٢) ذكرى فوزي — ص ٨

وانضد بدرّكَ في رقا بٍ « لم تدِنْ إلاّ بدِينِكْ » !

وفي السنة نفسها وقف خطيباً لأول مرة في نديّ جمعية النهضة العلمية التابع لمدرسة الكلية الشرقية في زحلة ، ومن قوله في وصف فقير يموتُ على قارعة الطريق فجاء شاهداً على أصالة الشاعرية الحزينة في نفسه :

« . . ضباب تبدده عواصف الريح ، ندًى تمتصه شفاه الصباح ، ظلام تقشعه قبلات الغزالة ، ورقة ناضرة تقصفها الأرياح وتحملها إلى حيث لا تدري ولا تريد ، تلك هي الحياة ! وهذا هو الموت ! . . . كما ينطفىء سراج فرغ زيته هكذا تنطفىء حياة الإنسان !

الموت ! الموت ! كلمة رهيبة مكتوبة في كل مكان : على أديم الغمام ، على صفحة الأرض ، على متن الرياح ، على كُمّ الزهرة ، على جذع الأرزة ، على جبهة الإنسان ! » .

تلقى فوزي دروسه الأولية في الكلية الشرقية بزحلة ، وفي أول سني الحرب الكبرى انتسب إلى مدرسة الفرير ببيروت ، وهناك توثبت فيه روح الشاعرية والميل إلى النظم . وإليك نبذة سجّلها في مذكراته :

« . . . ومما أذكر من حوادث ذلك العام أن لجنة أدبية قوامها : الشيخ إسكندر العازار ، والدكتور سليم الجلخ ، وبشارة الخوري الأخطل الصغير قدمت المدرسة لامتحان التلاميذ في نهاية السنة المدرسية ، فاقترح الأخطل الصغير ، وكان قد

أعجب بإحدى قصائدي ، أن أشطّر بيتين من الشعر فكتبتهما على اللوح وشطرتهما ، وهاك ما قلتُ :

« صبرًا على الأيامِ في بَلْواتِها » فالصَّبرُ أولى لاتِّقا آفاتِها
وإذا تجنَّتْ أو رَمَتْ سهم الشَّقا « لا بد أن تأتي على عاداتِها »
« إن كان عندكَ يا زمانُ مكيدةٌ » مكشوفةٌ فأنا لقا فتكاتِها
أو كان عندكَ آفةٌ محجوبةٌ « مما تكيد بها الرجالَ فهاتِها » !

وفي السنة الثانية عرّب فوزي رواية « كنزلف القرطبي » وشرع في تصنيف رواية « الحمامة في القفص » وفي سنة ١٩١٦ وضع روايته التمثيلية « ابن حامد » أو « سقوط غرناطة . . . » وهو في السابعة عشرة من عمره ، ونظم في حداثته قصائد جمَّة ، حتى إذا تطور شعره وسما خياله أهملها ، وكان يقول في أيامه الأخيرة : « أحمد الله على احتجاب* الصحف حين بدأتُ أنظم في أوائل الحرب العامة ، فقد ساعدني احتجابها على دفن منظومات يشرع في نشر مثلها كل من يبدأ في قرض الشعر ! » .

***

كان في نية فوزي التخصص بفرع من فروع العلم ؛ لكن مدرسة الفرير

* ذكرى فوزي — ص ١٠

ببيروت أوصدت أبوابها عام ١٩١٤، فعاد إلى زحلة عاكفاً على المطالعة والدرس، يساعده على تبسيط المباحث وشرحِها والده النسَّابة . وكان له من الخزانة المعلوفية ما يشفي غلة نفسه ، ووجد من والده البحاثة خير أب واسع الاطلاع ، ممرع الثقافة ، فشدن في جوٍّ شذيّ الفوح ، معطر الأرج ، وإذ بالصحف بعد لأي من الزمن تتسابق إلى نشر آثاره الأدبية في أبرز حقولها ، مبشرة بهذه المنحة التي خصَّ الله بها دولة الشعر الحديث .

وحينما دخل الحلفاء سوريا عام ١٩١٨ واستقامت الأمور هناك استدعاه والده إلى دمشق ، حيث كان عضواً في المجمع العلمي وقيِّماً على الآثار العربية ، فزاول فوزي عمله كأمين لصندوق دار المعلمين ، ثم كاتماً لأسرار المعهد الطبي العربي ، وشرعت الصحف والمجلات التي صدرت إبان ذلك العهد تنشر روائعه ، ورأى الناس فيه خطيباً جريئاً ، فذاع صيته وفاح عبير شعره حتى أصبح مرموق المكانة . ومن آثاره في دمشق دعابة شعرية تناشدها الناس في أسمارهم بعنوان « يا ليل الوحل متى غده ؟؟ » عارض بها قصيدة « يا ليل الصب . . . ! » للحصري القيرواني ، متفنناً فيها بوصف وحل حي « باب توما » وإليكها :

هل سيلٌ يهدرُ جارِفُهُ ؟ أو بحرٌ يزخرُ مزبدُهُ ؟
أو وَحْلٌ يغطس عابرُهُ للرأسِ وما من ينجدُهُ
لا ينفعُ (كالوشٌ) فيهِ و (الكترُ) وما تتزوّدُهُ

لم تهملْهُ بلديّتنـــا ! حاشا ، حاشا ، ما أسردهُ
لـكنْ نصبتْ فيه شَرَكاً لفتًى مثلي يتصيّدُهُ
فيكفّ عن السَّهرِ المضني ويريحُ الجسمَ ويرقدُهُ
ما يُنسَى لا يُنسَى ليلٌ مقطوبُ الحاجبِ أسودُهُ
لا نور الشارع يخرقُهُ أو نجمُ الأفقِ يبدّدُهُ
أسري فيه سيرَ الأعمى يستهدي اللمسَ فيرشدُهُ
وبرِجلي (كالوشٌ) لَزِجٌ يهوي في الوحلِ فأسندُهُ
(كالوشٌ) رِجلي تزرعُهُ في الأرضِ وكفّي تحصدُهُ
والبردُ يقضقضُ أضلاعي ويدبُّ بجسمي أبردُهُ
ويعجُّ حيالي مصطخباً مَطَرٌ ينهَلُّ معربدُهُ
فوقفتُ جزوعاً مضطرباً أستهدي الأفْقَ وأرصدُهُ
ظُلَمٌ حولي ، مَطَرٌ فوقي ! وَحلٌ تحتي أتوسّدُهُ
وشرعتُ أُغنّي من وَلَهي « يا ليلُ الوحلِ متى غده ! »
مَنْ لي ، مَنْ لي ، بعصا موسى فتقيني ممـــا أشهدُهُ

وأشقّ البحر وأعبرهُ وأقيم الوحلَ وأقعدُهُ !

وفي صباح اليوم الذي طالع فيه ذوو الحل والعقد الدعابة في « ألف باء » الدمشقية سارعوا إلى تلبية سؤله وإزالة معالم الوحل عن باب توما ! .

***

في صباح يوم ١٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٢١ طوى فرخ النسر ذراعيه على شاطئ بحر الروم ومخرت السابحة به بحر الظلمات مودعاً بيروت إلى « سان باولو » حيث انصرف إلى تأسيس مصانع الحرير مع شقيقيه إسكندر وشفيق وذوي خؤولته من آل معلوف ، ولم يلهه عمله الحر هذا عما فُطر عليه من شغف بالأدب ، فكان يفسح المجال لخواطر نفسه وخلجات فؤاده واهتزازات قلمه ، فنظم المقاطع والملاحم ، وأقام في تلك المدينة « المنتدى الزحلي » مستهدفاً غاية أدبية محضة هي : « توثيق عرى الاتحاد بين الجاليتين* السورية واللبنانية لترفعا هامة الفخار بين الأجانب » . وقد ترأس ذلك الندي ومثلت في أبهائه رواياته ومسرحياته ، فازدهر النادي وأصبح قبلة أنظار الناس هناك حيث أمَّه الغربيون ليتعلموا ويتذوقوا حلاوة الثقافة الشرقية وآدابها . وما برحتْ مجالس تلك المدينة ودارات سمرها تردد قصة « الفنجان العاشق . . . ! » ومجملها ، كما روتها صحف المهجر في حينه ، أن اجتماعاً عائلياً جرى

---

* ذكرى فوزي — ص ٥

في منزل الوجيه جورج بك معلوف فسقط فنجان القهوة من يد قرينته الرفيعة التهذيب السيدة إيزابيل عبود معلوف ، ولما كان المجلس يضم كلاً من الشعراء المعاليف : شاهين بك والمرحوم ميشيل بك وفوزي وشفيق ، فقد أثار شيطان الشعر تلك القرائح الفياضة فأنشد شاهين بك يقول :

ثملَ الفنجانُ لمّا لامستْ شفتاهُ شفتَيْها واستعرْ
فتلظَّتْ من لظاه يدُها وهْوَ لو يدري بما يجني اعتذرْ
وضعتْهُ عند ذا من كفِّها يتلوَّى قَلِقاً أنّى استقرْ
وارتمى من وجدهِ مستعطِفاً قدمَيْها وهو يبكي فانكَسَرْ

وأنشد ميشيل بك :

عاش يهواها ولكنْ في هواها يتكتَّمْ
كلما أدنتْه منها لاصقَ الثغرَ وتمَّمْ ...
دأبه التقبيل لا ينـــفكُّ حتى يتحطّمْ ...

وأنشد شفيق مرتجلاً :

إن هوى الفنجانُ لا تعجبْ فقد طَفرَ الحزنُ على مبسمِها
كل جزءٍ طار من فنجانِها كان ذكرى قبلةٍ من فمِها

فنظر المرحوم فوزي إلى الفنجان فإذا هو لم ينكسر فقال معارضاً :

ما هوى الفنجانُ مختاراً فلو خيّروهُ لم يفارقْ شفتَيْها
هي ألقتْهُ وذا حظ الذي يعتدِي يوماً بتقبيلٍ عليها
لا ولا خطّمهُ اليأسُ فها هو يبكي شاكياً منها إليها
والذي أبقاهُ حيًّا سالماً أملُ العودةِ يوماً ليدَيْها

وعلى الأثر تألفت لجنة قوامها ثلاثة أدباء للحكم في أفضلية الأبيات ، وعينت السيدة إيزابيل ساعة ذهبية جائزة يحرزها المجيد ، فحكمت اللجنة للمرحوم فوزي ففاز بالساعة وإذ ذاك قال خاله ميشيل بك مرتجلاً :

يا ساعة ! ما أنتِ أوَّلَ ساعةٍ ضيّعتُها من ذكرياتِ حياتي
مادمتُ ضيّعتُ السنينَ فما أنا بمعاتبٍ دهري على الساعاتِ !

✡ ✡ ✡

أصاب فوزي في تجارته مع شقيقيه وأخواله نجاحا باهراً حتى حسبوه في طليعة الأثرياء ، ومع كل ما أصاب من ثراء لم يسلُ القريض ولم تلهه الأرباح عن الأدب ، بل ظل عاكفاً على إرسال الشعر والنثر ، فتألقت نجومه ولمعت كواكبه ، وأجلّته حملة الأقلام ، حتى إن المستشرق المرحوم الدكتور (G. Kamp F F Meyer) ،

وكان يدرس اللغة العربية في معهد اللغات الشرقية ببرلين ورئيس جمعية الدراسات الإسلامية فيها ، عقد مقالاً مستفيضاً في مجلته « معرض الأفكار الشرقية » جاء فيه :

« . . . تتمشى النهضة الأدبية في الأقطار العربية الثلاثة، مصر والشام والعراق، بخطى متساوية متوازنة كأنما هي قلب خفاق يهتز تحت عاطفة واحدة ويتنفس عن شعور واحد ، وقد انقسم السائرون بها ، من حملة الأقلام ، إلى أقسام ثلاثة :

الفريق الأول — مشبع بالحنين إلى القديم ، وإن طرب لبعض بدائع الجديد .

الفريق الثاني — يصغي إلى موسيقى التطور الأدبي في الغرب ثم يوقع أنغامه على وتر شرقي .

الفريق الثالث — هو النشء الجديد ، وهو كمنادب الربيع ، تسمع منه وهو في صبح الحياة ألذ أنغام الآمال ، كما ترى فيه أجمل ابتسامات المستقبل ، والغد له ولا شك . ومن هذا الفريق فوزي المعلوف » .

بينما كان فوزي في ثورة صباه وتأجج شاعريته ، داهمه مرض عضال وهو يتفقد حانوته التجاري الكبير في « ريودي جنيرو » — عاصمة البرازيل — فصرعته نوبة الداء في العشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٢٩ ، وعلى الفور أجريت له عملية جراحية كان وقعها أليما على أهله وإخوته وذويه الذين رانت عليهم سُحب الأحزان، ولبثوا في حيرة وذهول ، وظل النزالة في عاصمة البرازيل على اهتمام

متواصل بالفقيد ، فما أعظمها عاطفة ، وما أفخمه شعوراً ، وما أغلاه عليلاً ، وما أسماه شاعراً !

لبث فوزي في المستشفى الإنجليزي أربعين يوماً ونيّف ونوابغ الأطباء قائمون على معالجته ، وأشهر الممرضات واقفات على خدمته ، وحجيج العوّاد لا يحصره عدّ ، ولا يحصيه حساب . . . وقلوب ذويه تخفق لأقل حركة يقوم بها أو إشارة يبديها ، لـكنّ سيل هذه العواطف لم يحل دون مصرع النسر ! فكان فقده رزءاً صُدع به مفرق الشباب ، وثلم ركن العبقرية ، وهيض جناح الشعر؛ فلفظ روحه الذكية في فجر يوم الثلاثاء المصادف ٧ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٣٠ فتسابقت صحف البرازيل إلى نشر رسومه وترجمة حياته ووصف مأتمه ، كما تسابقت الصحف العربية وغيرها إلى وصف مأتمه والحفاوة بجثمانه ودفنه ، وكأن شركات البرق أدركت هول المصاب فطيّرت نعيه إلى سائر أنحاء المسكونة ، ومما قالته (هافاس) : « مات الشاعر الـكبير فوزي معلوف وهو من كبار رجال الصناعة في سان باولو » .

* * *

يحتفظ شفيق المعلوف بين مذكراته بنسخة عربية من قصيدة « الطيارة »(*) أو « على بساط الريح » دفعها الطابع في البرازيل لتصحيحها فطلب فوزي إلى

(*) من أبرز منظومات الفقيد وسيجيء الحديث عنها .

شفيق رؤيتها وهو على فراش الداء وعلى أتم انتباهة ، فبينما هو يقرأها تناول من شفيق القلم بيد مرتجفة أجهدها الضعف ، وأمرّه إمراراً سريعا متواليا تحت البيت الذي يقول فيه عن أحلام الشاعر :

وتلاشتْ حلماً فحلماً إلى اللا شيء تمشي به قليلاً قليلا

ثم سكت فوزي ودفع إلى أخيه ما بيده ، فأخذ شفيق يتفحص المكان الذي وضع تحته خطًّا ليتبين موضع الخطأ فلم يظفر بشيء منه ولم يسأله شيئا ولا هو تكلم حتى إذا لفظ روحه و « توارت أحلامه . . . » بعد أيام ، علم أن ما أشكل عليه فهمه قد فسّر الموت طلاسمه . . . وفي الساعات الأخيرة التي سبقت وفاته لاحظ ذووه تعباً في عينيه ، في الساعة التي تودع بها الشمس الجبال ، وكان يطيل التحديق من نافذة غرفته ، وهي قائمة على رابية سوداء أمام « جبل السكر » القاتم ، وآخر ما قاله فوزي على فراش النزع : « إنه يريد أن يمشي . . . ! » وكان قد طلب ذلك قبل أيام فأجابه أخواه وذووه إلى سؤله ، وما كان في حسبانهم ، حين رأوه متحاملاً بجسمه الناحل عليهم وعلى نفسه ، أن في بعض خطواته المتثاقلة بعض الشيء من قوله :

إنَّ بين السريرِ والنعشِ خطْوا تٍ دعوها الوجود وهي بعكسِه

فأغلق فوزي عينيه على الدنيا التي لم يستمرئْ فيها عيشاً ولا استطاب نوراً

ومشى إلى الأبدية . . . إلى حيث الخلود ينشد نفسه جذلاً مهللاً من شعره قوله :

إنني شاعرٌ بروحيَ فوق الـــــموت تمشي بكل حي وبغضي
إيهِ يا موتُ لن تمسَّ خلودي فاقضِ ماشئتَ لست وحدَكَ تقضي
فأنا خالدٌ بشعري على رغـــــمِ زمانٍ عن قيمة الشعرِ يُغضي ! !

تحدَّر فوزي من أسرة طيبة الأعراق ، سامية الأخلاق ، جمعت إلى فخامة الجاه ، فخامة الثراء ، وترعرع في محيط راقٍ و بيئة عريقة النسب ، عريضة الحسب ، وامتاز بدماثة خلق ورفاهة حسّ ، وكان متحمساً لرفع الاسم السوري في المهجر حتى إن جريدة الوطن البرازيلية ذكرت أن أحد كبار موظفي الحكومة في ريو دي جنيرو سأل منشئها يوماً عن المرحوم فوزي قائلاً : « إن هذا الشاب ليس له نظير بين قومك السوريين ، فهو راقٍ في حديثه وسلوكه وطرق معيشته ، و إنه أشبه شيء بأحد سفراء الدول » فأجابه صاحب الوطن : « إن بيئة المرحوم فوزي راقية جداً إذ تستمتع في المواطن والمهاجر بمركز اجتماعي وعلمي ؛ فهو أحد خاصة السوريين ، وعدد هؤلاء قليل في البلاد ! » .

وروى صاحب الوطن أن أحد كبار الأطباء أظهر إعجابه الكثير بفقيد الأدب

العربي قائلاً : « إنه أشبه شيء بأحد أمراء الشرق ، فهو ممتاز بأدبه وكرمه وطرق معيشته » !

ونشرت مجلة « الكلية » في بيروت كلمة للدكتور فيليب حتي أستاذ علم التاريخ الشرقي في جامعة « برنستون » بالولايات المتحدة ، تناول فيها وصف رحلته إلى البرازيل عام ١٩٢٥ جاء منها :

« . . . قلّ بين الشبان الذين تعرفت بهم في السنين الأخيرة — ولقد اجتمعت بالعدد الوافر منهم في القارات الخمس — من أثّر في نفسي أثراً مستحباً أشد من الأثر الذي تركه فيّ فوزي المعلوف . فلقد اجتمعت به للمرة الأولى والأخيرة تحت سماء البرازيل الصافية ، كصفاء ذهنه ، الحارة كحرارة شعوره ، لاحظته يترأس جمعية هو أصغر أعضائها سنًّا ، أصغيت إليه وهو يتلو قصيدة نفيسة من نظمه في حفلة متخرجي جامعة لم يدرس فيها ، رافقته إلى معمله وهو يشرح لي أسرار صناعة كان يمارسها ، جلستُ إلى جانبه متنزهاً في مزارع البنّ تحت أشجاره يحادث ويفكّه ، سمعت الناس يتحدثون عن امتيازه أدباً وعلماً وخلقاً ، فإذا بفوزي في كل هذه الحالات هو . . . هو . . . وفيّ الأخلاق ، لطيف المعشر ، كبير النفس ، بعيد النظر ، على استعداد دائم للعطف على كل مشروع فيه خير للبلاد السورية التي أحبها وأنشأته ، عطف عملي لا شفهي فقط . وخلاصة القول كان فوزي المعلوف يمثّل الفتوة العربية في أحسن مظاهرها » .

ومن درس شعر هذا النابغ وتعمّق في مكنوناته ، ومطاوي أسراره ، يلمس فيه نزعة السمو والتحليق عن كل إسفاف . فما اشتهر به عداؤه للمال مع توفيره له ؛ فتراه يقول فيه :

المالُ ! ليس المال عندي سوى جرادة العيّار والزئبق

وكأن الثراء عبودية يرزح تحتها المعلوف فقد قال عن نفسه :

عبد مالي أحظى به بعد جُهدٍ فإذا بي أنوء من ثقل نيرِه

وفوزي — كما تستروح ذلك في سائر منظومه — من الخارجين على عبادة المال فقد عدَّها بين الذنوب والمثالب في قوله :

لم أعبدِ المالَ حياتي ولم أكذبْ ولم أقتلْ ولم أسرقِ

وما كان في ذلك مدَّعياً ، ولا نظر من وراء المال إلى غير الغايات النبيلة ، فقد أنشد يوماً :

المالُ ليس مشرفاً لرجالهِ قدرُ الرجالِ هو المشرّف مالها
لا خير في نِعمٍ رفلتَ بثوبِها إن لم تفدْ منها الحياة وآلَها

* * *

كان المترجم له متحمساً لوطنه ، يتمنى للعرب كل سعادة ومغنم ، وفي العهد الوطني

— الفيصلي — عُرف بوطنية لاهبة وحماسة متأججة ، ومنذ العهد العثماني إلى الاحتلال ، إلى هجرته إلى البرازيل، تقلب فوري في أطوار ثلاثة ، وفي هـذه المراحل الثلاث سادت شعره الوطني مرارة تحس منها بشيء في الأبيات التالية وهي من آثار العهد الأول :

تجافيتُ في شعري السياسةَ مدَّةً ... لعلمي بما يُرمى بهِ قائلُ الصدقِ
وعندي شؤونٌ لو أردتُ بيانَها ... لكان نصيبي أن أساق إلى الشنقِ
أرى أمّتي تمشي بكل غباوةٍ ... إلى حيث لا تلقى سوى البؤسِ والسحقِ
لقد قيل إن الشرق أتعسُ موطنٍ ... ونحن، لسوءالحظ ، أشقى بني الشرقِ

ولقد أنشد في هجرته إلى البرازيل من قصيدة :

لَهَـفي للربوعِ تضحي وتمسي ... وهي خلوٌ إلا من التنكيدِ
ينزح الساكنون عنها — ووجه الـ ... أرض رحبٌ — إلى المزار البعيدِ
هجـروها وماءها وهواها ... لم يطيقوا فيها هوان القعودِ
ودّعوها والدمعُ ملء المآقي ... لنواها ، والنارُ ملء الكبودِ
ولو أن الأصمّ يسمع صوتاً ... صرخوا بالبواخرِ الصُمّ: عودي...!

ولكن الباخرة الطرشاء .. الصمّاء ... كانت في شغل عن أماني المهاجر ... فسارت تشق به عباب الماء ... غير آبهة لزفرة أمه ... وحرقة أبيه ... مجتازة به مياه الإتلنتي ... وهناك حطَّ عصا تسياره في بلاد لم يألف جوها من قبل. ورغم ما أصابه في ديار الاغتراب من غنًى وثراء تراه يذكر بلاده ... ويرى ما عداها من البلدان مجداً زائلاً، وفي ذلك يقول فوزي من قصيدة :

لا المجدُ في الأرض يُرضيني ولا الذهبُ ... إن لم يكن في بلادي المجدُ والنشبُ

ولا السعادةُ بين الناسِ تُقنعني ... إن كان من حظ قومي الضيمُ والنصبُ

تاللهِ ما البعدُ ينسيني مودّتهم ... فالجسم مبتعدٌ والقلبُ مقتربُ

الناسُ نحو الترقي مشيُها خَبَبٌ ... ونحن نحو التلاشي مشيُنا خَبَبُ

والجهلُ والدينُ والإهمال علّتهُ ... وليس علّتَه غازٍ ومنتدبُ

إيه بني وطني والناسُ قاطبةً ... لرفع أوطانها قامت لها أهبُ

هبّوا إلى المجد ولننشىء لنا وطناً ... قوامه العلم لا الخطيّة القُضُبُ

إلى أن يقول :

تاللهِ لا نرتقي إلا متى اتّحدتْ ... تلك المآذنُ في الأوطان والقُببُ

ولتستعدْ لغة الضادِ التي دُعيت أمّ اللغاتِ شباباً بردها قشب

إنْ لم نكن كلّنا في أصلنا عرباً فنحن تحت لواها كلُّنا عربُ

٭٭٭

كان جل ما يطمح إليه شاعر الأمة المشردة أن يكون لبني قومه كرامة وحرمة في داخل بلادهم وخارجها غير آبه لاختلاف الوسائل النبيلة المفضية إلى تحقيق ذلك مهما تضاربت حولها الآراء وتباينت النزعات . ولا نغفل تقديسه لحرية الرأي وتجنبه الجدل فيما لا يعود على الوطن بخير ، اعتقاداً منه بأن لكل رأيه ومذهبه . . .

كان فوزي في دمشق يوم قرر أن يكون العلم الفرنسي ، وفي وسطه الأرزة ، علماً للبنان ، وكان من القائلين أن يكون للبنان عَلَم مستحدث خاص به ، فنشرت الصحف قصيدته اللبنانية التي يقول فيها :

. . . يا حنيني إلى فضائِك لولا ما به اليومَ من غمائمَ سودِ

وإلى الأرز شامخ الرأسِ لولا أنهم حمّلوه ذُلّ السجودِ

وضعوهُ طي المثلّث تحت الـــبيضِ بين الدما وبين الحديدِ !

ودَّع فوزي وطنه بدمعة الكبرياء فنظم وهو على الباخرة قصيدة جاء منها :

مهما يجُرْ وطني عليّ وأهلهُ فالأهلُ أهلي والبلادُ بلادي

أرثي لبؤسهم فأندبُ حالهم ... بفمي ، وأرثي حظّهم بمدادِ
خبطوا بظلماتِ الضلالِ ولم يَقُمْ ... فيهم إلى السبل القويمةِ هادِ
واستعذبوا ذلّ القيودِ فأصبحوا ... يتفاخرون بنيرِ الاُستعبادِ
وغدا بهم لبنانُ بعد عجيجهِ ... بالأُسدِ ، مأسدةٌ بلا آسادِ
هم ضيّعوا إرث الجدودِ فنالهم ... غضبُ الجدودِ ولعنةُ الأولادِ
قسماً بأهلي لم أفارق عن رضًى ... أهلي وهم ذخري وركن عمادي
لكنْ أنفتُ بأن أعيش بموطني ... عبداً وكنت به من الأسيادِ

وعثر شفيق بين مطويات أخيه على أبيات قد يكون بدأ بها نشيداً لم ينجزه ، ومنها غصّة تتردد في صدر كل من اغترب عن موطنه ونزح عن أهله ، وقد هال فوزي أن لا تكون كرامته القومية في مصاف كرامات الأمم الحيّة فقال :

أمري عجيبْ — بين الأمم ... أنّى أميلْ — ألقى المحنْ
أنا الغريبْ — فلا عَلَمْ ... ولا قبيلْ — ولا وطنْ

وأنشد من قصيدة عنوانها « أماني مهاجر » :

أنا الغريبُ فلا أهلٌ ولا وطنٌ ... إذا انتسبتُ أمام الناسِ وانتسبوا

ولا لواء إذا دُقّ النفيرُ مشى يحميه من صِيد قومي العسكرُ اللجِبُ
ومن يكون غريباً في مواطنهِ لا بدْعَ إن أنكرته الأرضُ والشهبُ!

وتحضرني الساعة ، والبحث يتناول وطنية فوزي ، خطبة مستفيضة ارتجلها في حفل ضمّ رعيلاً لجباً من شبان العرب بدمشق وقد استهلها بقوله :

« إننا أمة تجمعنا ثلاث حلقات : حلقة من نار وهي أمجاد جدودنا العرب ، وحلقة من حديد وهي قيودنا التي نعانيها ، وحلقة من ورد وهي آمالنا في المستقبل الذي نريده عهداً جديداً للعرب . . . »

لفوزي المعلوف طائفة من المعربات عن الفرنسية والبرتغالية والإسبانية من أبرزها « شاعر إسباني كبير يتفاخر بنسبه العربي » نشرها المقتطف عام ١٩٢٩ . وقد تناول فوزي حياة أمير شعراء الإسبان فرنسيسكو فيلا سباسا * الذي تغنى بأمجاد العرب و بكاهم في شعره وخطبه وقصائده وتفاخر بتحدره من صلبهم والانتماء إلى صميمهم ، ومن تلك المقالة ملحمة « فيلا سباسا » في بكاء « غرناطة » الأندلسية ، وقد عرّبها فوزي عن الإسبانية وهي :

غرناطةٌ ! أوّاه غرناطهْ ! لم يبق شيء لك من صولتِكْ !

* بلغ من حب الشاعر الإسباني للعرب أنه كان يتنقل في شوارع (مدريد) الكبرى مرتدياً ثياباً عربية وعلى وسطه خنجر ذهبي !

هل نهرُكِ الجاري سوى أدمعٍ تجري على ما دال من دولتِكْ ؟
والنسمةُ الغاديةُ الرائحه هل هي إلا زفرة نائحه
ما عدت في النهر كسلطانةٍ جبهتها في مائه ساطعَهْ
للقبّة الحمراء في تاجها وهج وللمئذنةِ اللامعَهْ
آه على أمجادك الضائعَهْ شيَّعتها بالنظرة الدامعه
مرت مرور النهر من جسرهِ وأورثتك النوح في عزلتِكْ
غرناطةٌ ! أوّاه غرناطهْ ! لم يبق شيء لك من صولتِك !

. . .

لله حمراؤكِ تحسو الأسى وحيدة في الروضة الخاليَهْ
لم يبقَ لا زهوة ندمانِها ولا صدى أعيادها الماضيَهْ
ولم يعدْ للحبِّ فيها أنين ينقله — العود — عن العاشقين
بينا يجيل البدرُ ألحاظه باهتة في المرمر اللامع
بين أريجِ الزهرِ المنتشي وبين شدو البلبل الساجعِ

وقصرها الخاوي بأرجائهِ كم غمّرَ الليل بضوضائه
إذ الجواري خاطراتٌ على سجادهِ جاريةً جاريَهْ
أروع ما في الشرق من رقصهِ تنسجه أقدامها العاريهْ

. . .

غرناطةٌ ، أوّاه غرناطه ! ما أنت إلا خربٌ قابعَه
تحمل أسراب السنونو إلى إفريقيا أنباءك الفاجعَه
هناك أبناؤك من بأسهمْ باكونَ ، لا باكونَ من يأسهمْ
عرّوا من الأغمادِ بيض الظُّبى ووشّحوا الخيل ببيضِ السروجْ
ويمّموا البحرَ فلما بَدَتْ منكِ على الأفق جبال الثلوجْ
خرّوا على أوجههم راكعين وزفروا من قهرهم صارخين :
غرناطةٌ ، أوّاه غرناطه ! ضعتِ فيا للعظم الضائعَه !
فيزفر الموج ويبكي لهم حين يرى أعينهم دامعَه !

ولفوزي ، فضلاً عن هذه المأساة الغرناطية ، أربعة دواوين شعرية هي : « شعلة العذاب » و « تأوهات الروح » و « من قلب السماء » و « أغاني الأندلس » وإنها

بحق لقلائد كريمة في جيد الأدب العربي بعثها شاعر حالم عامل على نشر أمجاد العرب في كل بقعة يهزها الشعر وتستفزها الأحلام !

***

التشاؤم في عُرفِ المتفائلين ضرب من الخلط والجنون ، وفي نظر فرائسه وفرسانه نتاج تفكير عميق وشعور صادق يصل إليهما حتماً كل من نظر إلى الحقائق والكائنات نظرة الباحث المدقق . ولكم سمعت أناساً يرددون في كل ظرف ومناسبة : « هل الوجود غير ألم . . . و بؤس . . . وشقاء . . . ؟ هل الإنسان إلا مخلوق معذب . . .؟ هل الحياة إلا مظهر من مظاهر التفاعل الكيماوي . . .؟ سخافة وشقاء دائم من المهد إلى اللحد . . . أولها عناء . . . وآخرها فناء . . . ! وما قيمة الخير واللذة إذا أصاب رشاشهما الإنسان حيناً من الزمن ؟ إزاء حياة متواصلة الألم . . . مكتظة بالمآسي ! ؟ تنغص عليه عيشته . . . وتجرعه الصاب والعلقم ! ؟ » .

والتشاؤم بهذا المعنى : ضرب من الفلسفة ، له رعيل لَجِبٌ من العلماء والعظماء أمثال « هه راقليت » الفيلسوف اليوناني ، و « لاروشفوكولد » و « شو بنهور » و « هارتمان » عند المحدثين !

لم يعدم الشعر العربي في تالده وطارفه حفنة ضخمة من فرسانه المجلّين الذين

أصابهم التشاؤم بسهام عضوضة وجعلهم فرائس سويدائه ، وعلى رأس الأوائل منهم «ابن الرومي» و «الحطيئة» و «الشنفرى» وحكيم المعرة «أبو العلاء» القائل :

وإذا أردتم بالبنين كرامةً فالحزم أجمعُ تركهم في الأظهرِ !

وعلى رأس الفريق المتشائم من شعراء هذا العصر ، جميل صدقي الزهاوي ، وحافظ إبرهيم ، وولي الدين يكن وفوزي المعلوف وأحمد الصافي النجفي القائل من قصيدة :

ليت أُمي من قبلُ كانت عقيماً أو أبي كان مبتلًى بالخصاء !

ولن يفوتني الساعة ، والمناسبة مؤاتية ، إلا أن أضيف إلى قافلة الأواخر من شعرائنا المعاصرين الذين طبعهم التشاؤم بطابعه ، شاعراً تونسياً كان هَزاراً فانتحر على أيكة التشاؤم وخرَّ صريع عويله ونواحه . . . وأعني به أبا القاسم الشابي الذي كان برماً بالحياة ، كثير السخط والحنق على شعبه ، ناقماً أشد النقمة على خمول بيئته ، وحاملاً مِعْوَل الهدم على تقاليد محنطة وعادات بالية تحف بالشعب الذي ساكنه، وبالمرابع التي نبت فيها . و «النبي المجهول» ألمع قصائد الشابي إذ تتنزى آلاماً وتباريح وقد استهلها بصرخة مدويّة تشف عن نفس ملذوعة وكبد مصدوعة ،

وشعور مرهف لتأخر أمته عن قافلة الأمم الواثبة للمجد ، المتطلعة إلى فجر النهوض .
واسمعه يقول :

أيّها الشعبُ ! ليتني كنت حطّا ... باً فأهوي على الجذوعِ بفأسي
ليتني كنت كالسيول إذا سا ... لتْ تهدّ القبورُ رمساً برمسِ
في صباحِ الحياة ضمّخت أكوا ... بي وأترعتها بخمرة نفسي
ثم قدّمتها إليك فأهرقـ ... ـت رحيقي ودستَ ياشعبُ كأسي
فتألمتُ ثم أسكت آلا ... مي وكفكفتُ من شعوري وحسي

. . .

ها أنا ذاهبٌ إلى الغاب يا شعـ ... ـبي لأقضي الحياة وحدي بيأسي
سوف أتلو على الطيورِ أناشيـ ... ـدي وأُفضي لها بأحزانِ نفسي
فهي تدري معنى الحياةِ وتدري ... أن مجد النفوس يقظة حسِّ
عن مصبّ الحياة أين مداه ؟ ... وصميم الوجودِ أيّان يرسي
وعبير الوجود في كل فجٍّ ... ونشيد الطيور حين تمسّي

وأغاني الرعاةِ أين يواريـــــها سكون الدجى وأيّان ترمي ؟

٭٭٭

ترعرع فوزي المعلوف في بيت سياجه العلم والفضل ، وتمايل مهده بين أنوار الأدب والتاريخ ، ودرج في مغارس المجد والسؤدد ، وتاه في مطارف العز والدلال ، وحباه المولى الكريم بأضخم ما يتمناه امرؤ في هذا الوجود : أب من سادات لبنان ، وأم من أرفع بيوتات زحلة ، وأهل وإخوة كلهم أفذاذ نوابغ انتشرت زحوفهم في أنحاء العالم ، وثراء واسع ضاف . وزد على هذا كله جمالاً جذاباً وصحة مشرقة ومستقبلاً باسماً وشهرة ملأت الدنيا وشغلت الناس ؛ يواكب ذلك كله احترام وحفاوة حيثما حلّ واستقر . . . فما علة تشاؤمه وار بداد أفقه . . .؟ وما الباعث على نزوعه إلى التأفف والثورة ؟

سؤال يردده الباحث الحيران المضطرب مرات في نهاره . . . ومشكلة يقلبها المحقق المستطلع على أوجه شتى علّه يجد حلاً لهذه الظاهرة الغريبة . . . وبعد مطاف طائل . . . وتفكير متواصل . . . لا يجد إلا أن فوزي رأى ببصره الثاقب أن كل ما في الوجود وهم زائل . . . فأبت عليه نفسه الصافية الطموحة إلى الكمال الإنساني أن يغمض عينيه على عيوب هذه البشرية ومثالبها . . .

فهبَّ من توّه ثائراً على المجتمع المريض . . . يقارع الظالم وينعى على الناس تفسّخَ أخلاقهم وانزلاق خلالهم ، بعد الذي بلاه منهم ، فَعَمَدَ إلى يراعه . . . واستعان بشاعريته الفياضة حيث راح يرسم خنوع الناس وتكالبهم على المادة وانغمامهم في الشهوات والمباذل . . . مقابلاً بين « المثل العليا » التي خُلِق الإنسان لها و بين انصرافه للشر وسعيه للضرر والأذى . . وإن هذا العالم الذي وُجد لرقي البشر قد شذّ عن غايته وهدفه وأصبح وسيلة للخراب والدمار ؛ فاصطدم هذا كله بإباء فوزي وعلو همته . . . وانبرى يصور للناس شقاءهم . . . منزلاً لهم الآية الشعرية تلو الآية . . . مدللاً بسامي مشاعره وتصويره الفني الدقيق على ما تبلوه البشرية العمياء الجانية من مصائب وشقاوات ما دام أبناؤها سادرين في غوايتهم وعاملين على إشادة مدنيتهم الزئبقية الزائفة التي لن يكتب لها الخلود والبقاء على توالي الأجيال . . . :

ليت عمرانه تأخر أجيا لاً فكل الخراب في عمرانه

روى الذين عرفوا فوزي عن كثَب أن الابتسامة لم تفارق ثغره . . . فكيف التوفيق بين تلك البسمة و بين كآبة نشرت جذورها في قلبه ؟ ! وانبسط ظلها على على سائر منظومه ؟ أكانت البسمة خلقة بين شفتيه ؟ أم أن أسارير وجهه فطرت

على الانبساط ؟. وقد خشي أن تخونه بشاشة وجهه حين ودّع بلاده إلى المهجر فقال مخاطباً نفسه :

حاذري أن يخونني الجلد الوا هي فيبدي وجهي طوايا ضلوعي !

كان فوزي يخفي تحت كل ابتسامة حرقة . . . رغم ما كان فيه من غمرة نعمة . . . وسمو عنصر . . . وإذا رددنا انقباض نفسه حينئذ إلى ما تناوشها من العوامل ، لاعتزامه النزوح عن وطنه ووداعه ربوع أحبته ، فهل نستطيع تعليل لهجته الحزينة فيما قاله يوم عيد مولده ، قبيل وفاته بأيام قلائل ، والحياة تهش له من كل جانب :

بسمةَ الأهلِ — يوم نولد حُولي عَبَراتٍ — على المهودِ
دمعةَ الأهل — يوم نلحد سِيلي بَسَماتٍ — على اللحودِ

. . .

ليت شعري ! لمن بسمتمْ ؟ أللآ تي إلى الكونِ مستهلاً بعبرَه ؟
وعلى من بكيتمُ ؟ أعَلى الرا حل عنه وزاده منه حسرَه
يولد الطفل للعذاب وهذي سنّة الدهرِ وقّي الطفل شرَّه

بين أوجاع أمّـه دخل المهـــدَ وبين الأوجاعِ يدخل قبرَه

. . . .

بُشّرتْ بالجنـينِ وهى نذيرٌ لا بشيرٌ ، فالسوء يملأ عمرَه
ما وليد الآلامِ غير أسيرٍ والردى وحدَهُ يحرّر أسرَه
ضاقت الأرضُ في الحياةِ عليهِ وكفته في الموت أضيق حفرَه
« تعبٌ كلّها الحياةُ ! » وهذا كل ما قال فيلسوف المعرّه

أو فيما يقول في موضع آخر، وقد استشرف منه يوم مصرعه وتراءى له المبضع في يد الجراح :

طويتْ بسمةٌ لينشر دمعٌ وخَبَتْ بهجةٌ ليلمع جرحُ

ثم تسمعه يقول في موضع آخر :

ألمٌ كلها الحياة فلا تُضـــحك ثغراً إلا لتُبكي عيونا

يعج شعر فوزي بنزعة التشاؤم . وإليك مقطوعة من قصيدة مطولة يخاطب بها الموت وقد اختلى إلى نفسه في ليلة يصفها : « . . مهيبةٌ* عمّ بها الجزع .. » لما نقلته الصحف عن نبوءة الفلكي الإنجليزي « بورتر » الذي أنذر العالم بالخراب

* ذكرى فوزي ص — ١٣

وفقدان جاذبية الكون وحدوث طوفان وزلازل في ١٧ كانون الأول سنة ١٩١٩ :

والآن يا موت إليّ اقتربْ يا مرحباً بالموثق المعتـقِ
معتق نفسي من قيودِ الأسى موثق جسمي في المدى الضيّقِ
هاك شباباً ناضراً فاحتسبْ وهاكَ قلباً نابضاً فاخنقِ...
لم يبق لي في الأرض من بغيةٍ ما الأرض إلا جنّة الأحمقِ

. . .

الناس ! ما فيهم سوى غادرٍ مراوغٍ ، أو مفسدٍ مقلقِ
المال ! ليس المال عندي سوى جـرادة العيّار والزئبقِ
الشعر ! بحرٌ كاملٌ وافرٌ وليس يروي غلّة المستقي
السيف ! والفرد بطيـــارةٍ أقوى من الفرقة والفيلقِ
العلم ! والكاسب من معولٍ خير من الكاسب من مهرقِ
الحب ! قف يا موت واشفق على قلبي ودعه لحظة يخفقِ . . .
دَعْ مقلتي تبكي قبيل النوى تبكي على الورد ، على الزنبقِ

تبكي على روض غرامٍ ذوى ما فيه من زاهٍ ومن رَيّقِ

. . .

لي بغية قبل الردى ليتها تمّت فلم آسفْ ولم أفرَقِ
وتلك أن ألمح محبـــوبتي فنحن بعـد اليوم : لن نلتقي

وتلمس معالم الألم ظاهرة بينة في ملحمته الشعرية « شعلة العذاب » وقد فاجأه الموت قبل أن ينجزها بل تركها مخطوطة بيده واستهلها بقوله في « لغز الوجود » :

بُرعم الزهر ما وجدت لتبقَى بل ليمضي بك — الخريف
هذه حالنـــــا : خلقنا لنشقَى ولتقضي بنـا — الحتـوف

. . .

كيف جئنا الدنيا ؟ ومن أين جئنا ؟ وإلى أيّ عالمٍ سوف نُفضي ؟
هل حُيينا قبل الوجود ؟ وهل نبـــعث بعد الردى ؟ وفي أيّ أرضِ ؟
هو كنهُ الحياة ما زال سرًّا كل حكمٍ فيـه يؤول لنقضِ

. . .

كيف أجلو غَدي ؟ وأدرك أمسي وأنا حرتُ كيف يومي سيمضي

قد حُيينا قبل الولادة لكن بجدودٍ قضوا كما سوف نقضي
وسنحيا بعد الردى بيننا في كيانٍ نعطيه بعضاً لبعضِ
كان بذر النباتِ نبتاً وأذوى فجنينا من بذره كل غضِّ
ذاك شأني بالجسم في الأرض لكن جوهري في مصيره غير عرضي
إنني شاعرٌ بروحيَ ، فوق الـ ـموت تمشي بكل حي وبغضي
إيه يا موتُ ! لن تمسَّ خلودي فاقضِ ماشئتَ لستَ وحدكَ تقضي
وإذا كنت مالكا أمر روحي مثلما أنت مالك أمرَ نبضي
فأنا خالد بشعري على رغـ ـم زمانٍ عن قيمة الشعر يُغضي

إلى أن يقول :

مرحباً بالعذابِ يلتهم العيـ ـن التهاماً وينهش القلب نهشا
مشبعاً نهمة إلى الدم حرّى ناقعاً غلّة إلى الدمع عطشى

ولفوزي بيت في الشاعر ما رددّته مرة إلا تراقصت في مخيلتي صورة ذاهلة متحركة يتنازع قسماتها القطوب تارة والابتسام طوراً وهو :

. . . هو لا يعرف التبسّمُ إلا عند ما يستعيد حلماً جميلا

ولئن زخرت ملحمة «شعلة العذاب» بتشاؤمية فاحمة . . . وتطير زاعق . . .
إن فى إلياذة الشعر العربي «على بساط الريح» أثراً جلياً لهذا التطير وتلك التشاؤمية ، وقبل أن أفضي بك إلى هيكل تلك الملحمة فتستروح شذاها وتتلو سورها وترتل آياتها ، أود أن أضع بين يديك النشيد الثاني عشر منها الموسوم بـ «كفارة الشاعر» :

وتجلّتْ روحٌ على القرب منّي رمقتني — بلا غضبْ
خلْتُها أقبلتْ تدافع عنّي صحّ ظني — ولا عجبْ
هي روحي جاءت تخلّصني من غضب العالِم الفخور بشمسِه
طوّقتني بكل عطفٍ وصاحت : أخواتي رفقاً به وببؤسِه
هو بالرغم عنه من عالم الأر ض تزيّا بشكل أبناء جنسِه
سكن الأرض مرغماً وهو لو خُـ ـيّرَ ما اختار غير ظلمة رمسِه

وفي هذا النشيد تلمس احتقاراً متناهياً للحياة . واسمع فوزي في النشيد العاشر من تلك الملحمة يقول على لسان أحد الأرواح عن أخيه الإنسان :

هو يحيا للشرّ فالشرّ يحيا أبدًا حيث حلّ شؤم ركابِه
وهو لا ينفع البسيطة إلا حين يثوي في القبر بين رحابِه

✡✡✡

فى إبّان الحرب الضروس الماضية ، قمت بزورة للدار المعلوفية العامرة فى زحلة ، وتناولت مجموعة رسوم للفقيد في شتى مراحل عمره ، فألفيت بينها رسماً وجده شفيق بين ملفات أخيه في — سان باولو — وقد وشحه شاعر الطيارة بهذين البيتين :

كل هذي الحياةِ وَهمٌ وهذا الـــــرسْم وهمٌ وما أنا غير وَهمِ
غير أن الرسوم تبقى طويلاً وأنا أمّحي بروحي وجسمي

من الناس فئـة لا ترى الإنسان سعيداً . . . مغبوط العيش . . . موفور الهناء إلا حينما تتوافر له أربعة عناصر هي : الحياة والمال والشهرة والحب . وفي زعم تلك الفئة أن السعادة متمثلة في تلك العناصر الأربعة . . . غير أن فوزي الفيلسوف يرى في تلك العناصر عبودية وشقاء :

أنا عبد الحياة والموت أمشي مكرهاً من مهودها لقبورِه
عبدُ ما ضمّت الشرائعُ من جو رٍ يخطّ القويّ كل سطورِه
عبد مالي ، أحظى به بعد جهدٍ فإذا بي أنوء من ثقل نيرِه
عبدُ إسمي ذوّبت روحي وجسمي طمعاً في خلوده ونشورِه

عبدُ حبي ، أنزلتُهُ في فؤادي فكوى أضلعي بنار سعيره

ولئن رأيت في القرن العشرين عصر مدنية يسير فيها العلم والاختراع الجهنمي سيراً حثيثاً إن فوزي لا يرى في هذا التقدم الزائف وذلك الاختراع الهدام إلا مؤناً وذخائر تغذي الحروب . . . وتنهك الشعوب . . . وتصرع الغالب والمغلوب . . . فحيث ترى أنت تقدماً وخيراً يرى هو تأخراً وشراً . . . وهاك صورة إنسان القرن العشرين كما رسمتها ريشة الفيلسوف المعلوف :

نسيَ الخيرَ حين أوغل في الشـــرّ فداسَ الضميرَ في عصيانِه
ملأت قلبهُ الأفاعي فلا يُســـمَع غير الفحيح في خفقانِه
أُعطيَ النطقَ والحجى ميزةً تفـــرقه في الوجود عن حيوانِه
فإذا بالأذى وليـــد حجاهُ وإذا بالشرور بنتُ لسانِه
عاث في أرضه فخالت جحيماً فأتى الخلدَ عائثاً في جنانِه
زجّ بالعلمِ في الفضاء طيورًا من جمادٍ يديرُها بينانِه
ما بناها إلا لهدم المباني ولسفك الدماء في طيرانِه
ليته لم يكن ذكياً فكل الـــويل في الكون من نهى إنسانِه

ولئن كانت مرثية « غير مجدٍ . . . ! » إحدى روائع كفيف المعرة أبي العلاء إن قصيدة « الشبح الهائم » من أروع ما ضمخ به هذا الفيلسوف الشاعر دولة الشعر العربي من قوافٍ مجنحة تفيض حسناً وتمور عاطفة ، وها هي ذي :

شبحٌ هائمٌ . . . يرى الناسَ أشبا ... حاً على الأرضِ كلهم هائمينا
(منهمُ من يرى الحياة شقاءً ! ... منهمُ من يرى الحياة فتونا)
شبحٌ يكره النهارَ ويهوى الـ ... ـليلَ فالليلُ ملجأ اليائسينا
هائمٌ ... شاردٌ ... على الأرض يبكيـ ... ـها ويبكي مَنْ فوقها يسرحونا
ينظر الناسَ يكثرون على الأر ... ض فيبكي لأنهم : يُكثرونا ....
يتمنَّى نقضَ الزواجِ من النا ... س فلا يحبلونَ أو يلدونا
تحمل الطفلَ في حشاها شهورًا ... ثم تلقيـ ... ـه للعذابِ سنينا
لا تكوني أصل البلاء لذاك الـ ... ـطفلِ يا أمّ وارحميهِ جنينا
أنتِ أدرى بحسرةِ العيش إذ لا ... قيتِ من شقوةِ الحياةِ فنونا
أيها السائرون في الأرض كبرًا ... أنتمُ للردى بها سائرونا
خففوا السيرَ فالتعجل يُدنيـ ... ـكم من القبرِ ، آهِ لو تعلمونا

إن كلّ الذي عليها ظلامٌ في ظلامٍ عليه تختبطونا
والقصورُ التي بنيتم على رمـــلٍ فختّامَ فوقه تبنونا ؟ !
هل رأيتم ورد الرّياضِ صباحاً فاتحاً للندى اللطيف جفونا
ثم أبصرتموه تنثره الريـــحُ وتذريهِ أرجل العابرينا
ورأيتم غصن الشباب نضيرًا باسماً زاهياً ، فماً وعيونا
ثم أبصرتموه تحت تراب الـ أرض يختال فوقه السائرونا
أَلَمٌ كلّها الحياة فلا تُضـــحكُ ثغرًا إلا لتبكي عيونا ! ! !

ولفوزي بيتان من الشعر يعطيك في الأول صور الحياة المتشائمة في عريها وحقيقتها :

بين أوجاعِ أمّهِ دخل المهـــد وبين الأوجاع يدخل قبرَه

ويشنّ في الثاني غارة شعواء على الحياة حاسراً اللثام عن عالم فاجر . . . وخلق متاجر . . .

ليت عمرانَهُ تأخّر أجيا لاً فكل الخراب في عمرانه

فالتشاؤم إذن أصل في روح فوزي لم يكن للطوارئ يد في تكييفه . فلقد دارجه منذ الطفولة ، ففتح عينيه في المهد . . . وأغلقهما في اللحد . . . !

شهدت في هـذا الفصل ظاهرة التشاؤم باسطة ظلها فوق منظوم فوزي ، وناشرة شراعها فوق ما خلَّف من صور شعرية وروائع فنية وآثار أدبية ! ومن كان شأنه وطابعه شأن وطابع هذا الهزار المنتحر . . . أيكون للحب سلطان على نفسه ؟ وللهوى الفضَّاح . . . وسيالانه سيطرة على ميوله وأحاسيسه ؟

مفروض في كل من طبعه القدر بطابع التشاؤم والتطير أن يكون صادقاً عن المرأة ، معرضاً عما تخلفه في النفس من آلام الهوى وتباريح الغرام . . . لـكنك سترى في حديثي هذا فوزي المتشائم صبًّا . . . دنفاً تقلبه الأكفّ على فراش من دموع وغرام . . .

من قرابة عشر سنوات دعاني صديقي الشاعر المرحوم إبرهيم طوقان للتحدث من محطة إذاعة القدس عن أمير شعراء العرب في ديار المهجر فوزي المعلوف ؛ فلبيت الدعوة واستويت وراء قرص الإذاعة مسهباً في الحديث عن هذا الشاعر ، وإذ بي في أول حديث ألقيه عنه فريسة التأثر البالغ . . . عند ما وصلتُ بإنشادي إلى مقطوعة من الشعر يخاطب بها فوزي الحب ومنها :

الحب ! قفْ ياموتُ واشفقْ على قلبي ودعه لحظـةً يخفقِ
دع مقلتي تبكي قبيلَ النوى تبكي على الوردِ ، على الزنبقِ
تبكي على روض غرامٍ ذوى ما فيه من زاهٍ ومن ريّقِ
لي بغيةٌ قبل الردى ليتها تمَّتْ فلم آسفْ ولم أفرقِ
وتلك أن ألمح محبوبتي فنحن بعـد اليوم لن نلتقي

أقول : تولاني جزع هادم وأنا مستوٍ وراء قرص الإذاعة أردد هـذه المقطوعة التي تنضح أبياتها بالألم والأسى ، وتتنزّى مقاطعها بالوجد والزفير ، ولم أذكر يوماً تأثرت فيه تأثري ساعة أن تذكرت فوزي شاباً وسيم القسمات ، مفعماً حيوية وإشراقاً يودع هذا العالم الجاني دون أن يلمح محبوبته ويلقاها في جنبات « روض غرامه . . . » ، وتمنيت لو أن القدر الغشوم مدَّ في عمره ، قبل أن يفوّق إلى قلبه نبال غدره ، ويسدد إلى صدره سهام شره ، بل أرهف أذنيه إلى نداء فوزي وتوسله :

لي بغية قبل الردى ليتها تمَّتْ فلم آسفْ ولم أفرقِ
وتلك أن ألمح محبوبتي فنحن بعد اليوم لن نلتقي . . .

أقول تمنيت لو أن القدر العاتي أصاخ بمسمعه إلى أُمنية هـذا العبقري النابغ وفسح في أجله لحظة ، ليأخذ القلب في وجيبه ، وليتسنى لصاحبه المحروب النفس أن يبكي على ورده وزنبقه ، ويبلل روض غرامه بالدمع الهتون قبل أن تصوّح معالمه وتذبل وروده وتخبو ألوانها الزاهية . . . !

تمنيت لو أن القدر الغشوم لم يسطُ بمنجل غدره على فوزي فأودى به إلى حياض الردى . . . وتمنّيت لو فسح في كتاب أجله كيما تُسعد بيوم زفافه عين الفيلسوف المفجوع ، والوالدة الثكلى ، والشقيقتان الباكيتان ، وعصبة إخوانه المعجبين بذوب إنتاجه ومرهف روائعه .

لـكن القدر الجاني سدّد ضربة غدر إلى قلب « شاعر الطيارة » فهوى من عَلِ جثة هامدة لا حراك فيها !

وقبل أن أمسح القلم من موضوع حب هـذا الشاعر أثبتُ قصيدة عنوانها « ساعة البين » وقد نظمها في قرية « المريجات » اللبنانية عام ١٩١٦ ومنها :

رويدًا قطار الشؤم حتّامَ تلتوي ... وتنجدُ في عرض البلاد وتتهمُ
مكانك لاتنقل عن (الخط) * قطعةً ... ولا تتحركْ إن ذلك أسلمُ
سلبت التي كانت لقلبيَ نعمةً ... ونورًا لعيني تجتليـه فتنعم

* سكة الحديد .

فدعها فمالي غيرها وهي ما لَها ... سوايَ على أرض بها الحبُّ يحكمُ
وإلا تصادمنا ومثليَ في الهوى ... على كل أنواع المخاطر يُقدِمُ
فإن تحوِ من جيش الحديد عرمرماً ... فلي من غرامي جيش عزمٍ عرمرمُ
وإن كانت النيرانُ فيك كثيرةً ... ففي أَضلعي من نار وجدي جهنمُ
منعتك عن سيرٍ فإن تخطُ خطوةً ... تجدنيَ ليثاً في الهوى ليس يقحمُ
له في لقا الأخطارِ عزمٌ وهمَّةٌ ... ولكن لدى الألحاظ قلبٌ مسلَّمُ

ولفوزي قصيدة بعنوان «أنين» تنضح مقاطعها بزفرات الحب الصادق البريء من كل كلفة أو ضعة ، وكلما مرَّ شريطها في مخيلتي خشع القلب إجلالا لذكرى شاعر نابغ لو عاش طويلا لأفاض على الدنيا بشعر تخال الشعاع سداه والنسيم لحمته :

أَلا فاكشفي عني الرداءَ وحدّقي ... بصدري ترَيْ مالا ترى أعيُن الناسِ
ضلوعٌ ولكنْ لاوياتٌ من الجوى ... وقلبٌ ولكنْ كالمدامةِ في الكاسِ
تحمّلها الأيامُ ما لا تطيقهُ ... وتسكبه الأشواق للشّغَف الحاسي
ولا تلمسي جسمي فجسميَ شعلةٌ ... من النارِ لاصدري سليمٌ ولا راسي
أخاف على وردٍ بخدّيك ناضرٍ ... من الموت إن هبّتْ على الخدأ نفاسي

وأخشى على آسٍ بكفّيك زاهرٍ   يشوّهه من ملمسي الشائك القاسي

. . .

أنا الليل مسودُّ الجوانح مرعبٌ   وأنتِ على بعد المزارة نبراسي
أنا الحزن مرسومٌ، أنا السّقْم ظاهرٌ   أنا الحب مصدودٌ أنا الألم الراسي
أنا العابدُ العاني، أنا هيكل الهوى   ألم تسمعي من أضلعي صوت أجراسِ ؟
صلاتيَ أشعاري وإنجيليَ الهوى   ودمعيَ قرباني وذكراك قدّاسي
بلغتُ إلى أقصى التعاسة في الجوى   فحتّامَ هذا الدهر يطلبُ إتعاسي ؟
فيا ليَ من روحٍ تعذّبُ ، ما جنى   عليها سوى قلبي ورقّة إحساسي
وتاللهِ لولا قوةٌ لم تزلْ بها   لأرديتها خنقاً بكفيَ من ياسي

واسمعهُ يمثّلُ لك غرامه بلفيفة تبغ :

. . . وألثمها لا لثمة الوجد إنما   لماماً ، كتقبيل الفراشة للوردِ

ثم يتخلص من هذا الوصف بأسلوب الحكيم مخاطباً محبوبه :

. . . أراك خيالاً في ضبابِ دخانها   تغلغل من أحلامي البيض في بُردِ

أرى فيه حيناً شكل عين جميلةٍ وألمح حيناً فيه تكويرة النهدِ

وله في وصف غادة حسناء رآها تبترد يوماً في بحر بيروت قوله :

وقفتْ وحرُّ الشمسِ مضطرمٌ تُقلي به الأجسامُ فى جمرِ
حوريّةٌ في جفنها حَوَرٌ مكشوفةُ الساقين والنحرِ
واصطفّتِ الأمواجُ والهةً لعناقِها ، مفتوحة الصدر
فتغلغلتْ فيها تنقّل من صخرٍ إلى سطحٍ إلى قعرِ
وكأنها — والماء كلّهُ زبدٌ حيال بياضها النضرِ —
في الروض زنبقةٌ يحيط بها ورق الربيع وباسم الزهر

ولفوزي مقطوعة في الوصف العاري أود أن تقرأها لتدرك عندها أن الشاعر ، مع إلمامه بالمادة ، كان محلقاً يروحه عنها ؛ فهو يصف لك موقفاً يبعث الريبة في نفسك حتى إذا بلغ به الريب مداه . . . وقفك فجأة على تساميه ونقاء حبه :

لففتُ ذراعي حول خصر حبيبتي كما التفّ حول الصخر ، عاشقه النهرُ
وكنا — وجسمانا لصيقان — واحدًا وصدر كلينا في اعتناقهما صدرُ
وقبّلتها والنفس مني مشوقةٌ وما زلتُ حتى ذاب بالقبل النحر

وما هي إلا برهةٌ فمشى بنا نعاسٌ فنمنا نوم من ناله السكرُ
ولم نخش عما كان لومة لائمٍ فمن حبّنا العذريّ قام لنا عذرُ

والفوزي كذلك مقطوعة في هذا الباب بعنوان « لو » تنضح أبياتها وجداً وأنيناً :

لو يعلم الزهر حبيب الهوا ما في فؤادي من جراح الهوى
لذوّب البلسمَ من عطرِهِ فيه ليشفيني
ولو رأى البلبلُ بين الغصونْ نار ضلوعي في مياهِ الجفونْ
لحوّل المحزن من شعرِهِ شدوًا يُسَلّيني
ولو درى البدرُ عشيق النجومْ بما أُلاقي من فنونِ الهمومْ
لأهمل الشهبَ ومن قصرِهِ أهوى يؤاسيني
ولو درى الفجرُ بأني أرَقْ من نسمةِ الفجرِ لطول الارَقْ
لبلّ الأضلعَ من قطرِهِ وراح يبكيني

أكاد أعتقد أن فوزي المعلوف « لم يمت إلا بضربة* غدر أصابت قلبه في

* محمود أبو الوفا (المقتطف ٧٨ : ٣٧٤ مارس ١٩٣٠)

مأمنه . . . » فقطّعت نياطه ، وحسبك شاهداً قوله :

إيهِ يا نجمتي ، ألم تعرفيني : شاعرًا يُنصتُ الدجى لنواحِهْ ؟
كم ليالٍ في الروض أحييتها أبـــكي وأشكو إليك بين أقاحِهْ
سامحَ الله فيـك قلباً نسيًّا هو في الكونِ مثل قلب ملاحِهْ

قضى الشاعر المجدد فوزي المعلوف نحبه في سهول البرازيل الممرعة ، بعيداً عن (البردوني) الهادر والصفصاف الباكي ، وكل ما في الوادي الساحر من مغان وفتون . وتقديراً لنبوغ هذا العبقري الخالد نَحتَ مهاجرو العرب في البرازيل تمثالا نصفياً للفقيد من البرونز مع قاعدة جميلة من رخام الجرانيت الإيتالي ، بلغت زنتهما ٧٥٠٠ كيلوغرام ، وقد حملته إلى بيروت صباح يوم الثلاثاء الواقع في ٣ تموز (يوليو) ١٩٣٧ الباخرة « بالستينيا » وجيء به إلى زحلة لينصب في حديقة المجلس البلدي .

ومساء يوم ١٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٧ أزيح الستار عن التمثال بمهرجان حافل أمّه أدباء سوريا ولبنان وتكلم فيه خطباء بارزون . وفي ذلك الحفل قلّد وزير

داخلية لبنان الأستاذ حبيب أبو شهلا « الظل المتحجر » وسامَ الاستحقاق اللبناني المذهب الأول . وقد ختم الحفلة شفيق المعلوف بكلمة رقيقة بليغة جاء منها :

« فوزي ! ومالي في الخطوبِ يدانِ ما هكذا الأخوانِ يلتقيانِ
قرّبتُ صدري للعناقِ فلم أقعْ إلا على قِطَعٍ من الصّوانِ
نصبٌ خفضتُ له الجفونَ كأنما نصبت حجارتهُ على أجفاني

أيها البردوني ! لقد عاد إليك الشاعر الفياض بروحه ، فقف تهيباً لرمز الخلود ! أنت الآن في أمان بين صنين وحرمون والتمثال ، ثلاثة جبابرة من جبابرة الجماد الناطق بالكرامة والسؤدد والحسن والجمال !

قد تثور البراكين ، وتهتز الجبال وتمسي دخاناً ، ولكن التمثال خالد على الزمان . قد تنكسف الشمس و ينخسف القمر ، ولكن روح الشاعر تنير كل الأجيال .

مات سليمان ! ولكن أناشيده ترددها هيا كل الدنيا !

مات داوود ! ولكن قيثارة داوود حية في قلب العالم !

وهنا ! هنا يا فوزي ترقد روحك كما أحبت واشتهت !

تنتحي عالم الخلودِ لتحيا حرّةً بين روضهِ وغديرهْ

هنا . . . ولأول ليلة سترقد على أنغام طيور الغاب . . . أو لست القائل يوم لامست طيارتك الطير في سماء سانبولو :

لا تخافي يا طيرُ ما أنا إلّا   شاعرٌ تطرب الطيورُ لشعرِهْ
زاركِ اليومَ متعباً ينشد الرا   حةَ في هداةِ السكون وسحرِهْ

. . .

هشَّتْ لك الأزمانُ قبل ولادِها   فاخلعْ زماناً واتّشحْ بزمانِ
لله نصبك فهو أخلدُ بردة   في الأرض ينسجها الخلودُ الثاني

فوزي ! أحببت أمتك فأحبتك !

وأخلصت لوطنك ففتح لك ذراعيه وقلبه !

فاجثم جثمتك الأبدية على ضفة نهر زحلة والخلود ملقى على قدميك !

وأقم يا أخا الروح حيث يكلل جبينك الطل ، ويقبل قدميك الظل !

فما النهر الهادر ، والصفصاف الباكي ، وكل ما في الوادي الساحر من فنون وجمال غير قصائد خالدة في كتاب حياتك الخالد !

فانعم يا فوزي بهذا الخلود ، يتوج نصبك إكليل من الغار تحت كل ورقة من ورقاته عاطفة تحلم أو عاصفة تتكلم !

. . .

أيها المحتفلون بفوزي !

ها هو فوزي أمامكم كما عرفتموه ، وشئتم أن تعرفوا به الأجيال القادمة !

هاهو يطل عليكم شاكراً حامداً . أما نحن أهله فيعيينا معكم الشكر !

لأن فوزي الخالد صنعة* الله وظل فوزي المتحجر صنعتكم

فما أبعدنا نحن عنه ! وما أقربكم أنتم إليه !

أما أنت يا فوزي ، وقد زففت إلى وطنك بموكب من هذه القلوب النبيلة وفي هالة من هذا الشعور القومي الشريف ،

فعش لأمتك بعد الموت كما كنت لها في الحياة ! شامخ الأنف ! مرفوع الجبين !

مردداً مع الزمان على مسمع كل عابر آيتك الرائعة :

إيهِ يا موتُ لن تمسَّ خلودي فاقضِ ماشئتَ لستَ وحدك تقضي !»

---

* كان في عداد من تكلم في حفلة نصب التمثال رعيل لجب من أدباء سوريا ولبنان نذكر منهم ، الأساتذة الأدباء : المرحوم فيلكس فارس، والشيخ إبرهيم المنذر، ونجيب إليان، وخليل تقي الدين، والدكتور نجيب فرح، وإلياس أباشبكة ، وإيمي خير، وشبل وحليم دموس، وشكري بخاش صاحب (زحلة الفتاة) وعبد الله حلاق صاحب مجلة (الضاد) الحلبية ؛ وقد ألقى معلقة مطولة من عيون الشعر كان مطلعها :

جارة الوادي وأرض العنب حن فوزي لثراك الطيب
حن للوادي الذي لقنـه سور الوحي وآي الأدب

على بساطِ الرّيح

درس وتحليل

« بساط الريح » اسم لبساط زعمت الأساطير الشرقية أن السحرة تمتطيه في غدوها ورواحها ومما رواه صاحب « نفح الطيب » من ذكاء أهل الأندلس في استخراج العلوم واستنباطها ، أن أبا القاسم عباس بن فرناس حكيم الأندلس ، قد احتال يوماً في تطيير جثمانه فكسا نفسه بالريش ومدّ له جناحين ، طائراً في الجو مسافة بعيدة ولكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعه فتأذى مؤخره وفي هذا قال الشاعر :

يطم على العنقاء في طيرانها ... إذا ما كسا جثمانه ريح قشعمِ !

***

في أوائل شهر أيار (مايو) ١٩٢٦ امتطى فوزي المعلوف طيارة كانت جاثمة على شواطىء « كواروجا — ريودي جنيرو » ، ولما صار في الفضاء على علوّ شاهق :

أنزلته فيـه عروس قوافيـــه بعيدًا عن الوجودِ وظُلمِهْ

ضارباً في الفضاء موكبه النو ... ر وأتباعه عرائسُ حلمِهْ

وهاجت بلابل صدره وتحركت فيه نوازع خفيَّة أوحت إليه ابتداع ملحمة « على بساط الريح » أو « شاعر في طيارة » فجاءت مُذهبة خريدة جمعت إلى رقة الأندلس فلسفة الهند وحكمة اليونان وروح العرب ؛ فارتقى « شاعر الطيارة » بالنفوس إلى الملأ العلوي . . . إلى ما وراء الأفق . . . حيث جال في ربع اللانهاية ، وتغنى بأناشيده الأربعة عشر مترنماً بجمال الشرق وروعة جلاله . . . وحلَّق فوق الأرض تحليق من تعوَّد ارتياد الفضاء الأوسع ، محمولاً على جناحين اصطناعيين يخيل إليك أنهما جناحا الرخ ، ذلك الطائر العجيب الذي ذكرته الأساطير الشرقية . ولما هبط بطيارته إلى الأرض نظم ملحمة طبعت بلغات شتى ، وازدانت فصولها بصور ملونة ورموز بديعة .

وقبل أن أحدثك عن هذا الأثر الشرقي الماتع ، والدخول بك إلى قدس أقداسه أسرد تالياً أسماء من سُحروا بهذه التحفة الشرقية فترجموها إلى لغاتهم الحية :

١ — أمير شعراء الإسبان ، المرحوم فرنسيسكو فيلا سباسا ، صديق فوزي ، فقد ترجم « على بساط الريح » شعراً إلى اللغة الإسبانية مع مقدمة مطولة حلَّل فيها الشاعر وآدابه ، وطبع كتابه عنها مصوراً في البرازيل عام ١٩٣٠ ، وترجم المقدمة إلى العربية الشاعر النابه شفيق المعلوف وصدَّر بها الطبعة العربية .

٢ — أمير شعراء البرتغال ، فنتور لي سوبرينو ، صديق فوزي ، فقد ترجمها

شعراً إلى البرتغالية مع مقدمة فيلا سباسا وطبعها عام ١٩٣٠ مزدانة بالرسوم على غرار الطبعتين العربية والإسبانية .

٣ — المستشرق الإنجليزي جورج كفت ، الموظف في المتحف البريطاني بلندن، فقد ترجمها إلى الإنجليزية بعد أن استأذن بذلك والد الناظم .

٤ — السيد أسعد محفل ، قنصل سورية في القاهرة والحلبي الأصل ، فقد ترجمها إلى الفرنسية .

٥ — المستشرق الألماني الدكتور . ج . كمبفاير ، فقد ترجمها إلى الألمانية ونشرها تباعاً في مجلته « معرض الأفكار الشرقية » التي كان يصدرها باللغتين العربية والألمانية .

٦ — المستشرق الروسي كروتشكوفسكي ، فقد ترجمها إلى الروسية مع قصائد أخرى للفقيد .

٧ — السيد أميل مرقّده ، نزيل بخارست والدمشقي الأصل ، فقد ترجمها إلى الرومانية .

٨ — الدكتور فانز عون ، نزيل باريس والزحلي الأصل ، فقد ترجمها إلى الفرنسية مع كثير من أشعار فوزي وطبعها عام ١٩٣٨ أطروحة نال عليها شهادة الدكتوراه في الآداب من جامعة باريس ، وقد ملأت ترجمته كتاباً في مائتي صفحة أبدع فيها الدكتور عون بوصف أخلاق شاعر الوحي والإلهام وتحليل آرائه ونشره

آثاره ؛ فقابلت صحافة باريس عمل الدكتور عون الجليل بالمدح العطر والثناء المستطاب

٩ — الدكتور فؤاد عقل ، اللبناني الأصل ونزيل بروكلن ، فقد نقلها إلى الإنجليزية مع بعض أشعار عمر الخيام الشاعر الفارسي .

١٠ — السيدة أفلين بسترس ، البيروتية الأصل ، فقد ترجمت ملحمة «الطيارة» إلى الفرنسية ونشرتها عام ١٩٣٨ فى الجزء الخامس من مجلتها « فينيقية » التي كانت تصدر في بيروت باللغة الفرنسية .

١١ — السيد فوزي سعيد ، بيروت ، فقد ترجمها إلى الفرنسية .

١٢ — وذكرت مجلة «الهلال» في الصفحة — ٥٩٧ من المجلد — ٤٦ عام ١٩٣٨ مانصه : « نشرت مجلة «ألمانيا» التي تصدر في باريس خبراً مؤداه أن أحد الناشرين في برلين قد طبع مجموعة أشعار العربي المشهور فوزي المعلوف ، ونقل هذه المجموعة إلى اللغة الألمانية بدقة تامة ، وستظهر في مستهل العام الجديد » . اهـ

جاءت ملحمة « على بساط الريح » في أربعة عشر نشيداً مصدرة بمقدمة لشاعر الإسبان المرحوم فيلا سباسا ، وقد احتواها مجلد قلَّ أن تقع العين على مثله رونقاً وبهاء ، فهو تحفة من تُحف الطباعة العصرية وقلادة غالية ، من قلائد أنفاس « شاعر البردوني » . وما كاد الناشرون يخرجونه إلى عالم النور حتى تسابق الرسامون إلى توشيته بالرسوم الرمزية المتعددة ، وتنافسوا في إبراز معانيه السامية بالريشة الملونة .

هذا ما فعله الرسامان « إيجنا توفتش » الروسي و « سيت » البرازيلي اللذان تقاسما الملحمة وأناشيدها فوقع الأول رموز العناوين ورسم الثاني رموز الأناشيد .

لقد ترجمت مقدمة فيلا سباسا للملحمة إلى العربية ترجمة متقنة ، وسُبكت سبكاً لطيفاً يكاد يضارع النص الإسباني . وقمين بالمتأدبين وحملة الأقلام في دولة الأدب العربي أن يأخذوا تلك المقدمة وينقشوها « معلقة » يزينون بها جيد الأدب ، ووساماً يعلقونه فوق صدور المبرزين منهم ؛ لأنها أشادة بأمجاد العرب لم يشدها حتى أخلص غلاتهم ، ونشيد في الروح العربية والبيان العربي لم يترنم شادٍ بأجمل وأصدق منه .

شاعر ! في التاسعة والعشرين من عمره تضيق الأرض عن احتواء آماله وطموحه ، وتعزف نفسه عما يرى من فساد البشرية وانحطاط الدنيا التي يراها غير جديرة بأن تكون موطناً للشاعر الذي جاءها مُكرهاً لا بطلاً :

ليت شعري! ما الشاعر ابن لهذي الـ أرض إلا بلحمه وبعظمه

وتتلمس الكآبة شائعة في كل جانب من جوانب نفسه ؛ حتى في ساعات مرحه ومجالس أنسه لا يجد غير بؤس وكآبة يحفّان به من كل صوب ، فكان من العالم يائساً . . . ومن الناس متطيراً . . . ومن الدنيا برماً . . .

أَلِفَ اليأسَ قلبه ، فهْوَ واليأ سُ يحاكي بثينةً وجميلا
وإذا اليأسُ صدَّ عنه قليلاً راح يبكي على نواهُ طويلا

كان المعلوف شديد النقمة على ما في الكون من موبقات ومباذل ، وعلى ما كَمَنَ في نفوس الناس من شيم الظلم والغدر والعدوان ، وهو في كل نشيد من أناشيده يتنكر للناس... ويندّد بهم . . ويشد عليهم بقاحم من الزجر والتأنيب ...

هو مخلوق عالمٍ إسمه الأر ض يغطي الشقاء كل بطاحِهْ
عالمٌ ما شعارهُ غير أن الـ ـحقّ للقوة التي في سلاحِهْ

وإذا قرأت أنشودة «العبد !» عرفت نزوة نفسه الثائرة على التقاليد المحنطة ومفاسد المدنية الحاضرة ، وعلى كل هذه التلاوين التي يوشّون بها الشرور والآثام، وتراه يصور لك« الإنسان ! » ، الإنسان الذي يدعي الحرية ، عبداً للحياة ، عبداً لما ضمت الشرائع من جور ، عبداً للقضاء ، عبداً لمدنية تلهو بالقشور . . . عبداً للمال ولاسمه ولجسمه. . .فترى هذا المخلوق الآدمي متسكعاً في ظلام العبودية. . .مكبلاً بأغلالها ... لا يطيق منها انفكاكاً !

وحرصاً مني على أن تمتع الطرف بمعلقة فوّاحة الشذا ، منتقاة اللفظ ، عوّلتُ على إثبات أناشيد «على بساط الريح» في آخر فصول هذا الكتاب ليُتاح للكثيرين من المتأدبين الاستمتاع بقصيدة هي وليدة القرن العشرين .

وكأنما هي كما يتبادر لفيلا سباسا في مقدمته الآنف ذكرها : « من قلم أولئك الشعراء العظام الذين كانوا منذ أجيال زهواً وفخراً لكل بلاط في بغداد ودمشق

وقرطبة وأشبيلية وغرناطة ، أولئك الشعراء الذين كانوا إذا كتبوا كأنما يغمسون أقلامهم في حبر الخلود » .

لقد عَمدَ الشاعر الفنان إلى تقسيم ملحمته إلى عدة أناشيد متنوعة القوافي، متدرجاً فيها من حلم بملك في الهواء ، إلى تحليل نفسية الشاعر ، إلى تحقيق حلمه ، إلى وصف تجواله الهوائي ، إلى خواطره في أثناء طيرانه ، وأجملها مفاجأة الأرواح له . وأخيراً عودته إلى أُمه الأرض . . . . ولقد أحسنَ باستهلاله كل نشيد ببيتين رشيقين ضمنهما صفوة النشيد ، وكأني بالشاعر ، لتغلغله في فهم الحياة ، أصبح غريباً عن الحياة ، والإنسان في نظر عبقريته محكوم عليه أن يعيش عبد الحياة لا يتحرر من أحد قيودها إلا ليقع في قيد أنكى ؛ فهو لا ينفك يُعيد في إنشاده :

بين روحي وبين جسمي الأسيرِ كان بعدٌ — ذقت مُرَّهْ
أنا في الأرض ... وهي فوق الأثيرِ أنا عبدٌ — وهي حُرَّهْ
أنا عبدُ الحيـاةِ والموتِ أمشى مكرهاً من مهودها لقبورِهْ
عبدُ ما ضمت الشرائع من جو رٍ يخطّ القويّ كل سطورِهْ
عبدُ عصرٍ من التمدُّن نلهو ضِلةً عن لُبابه بقشورِهْ
عبدُ إسمي ذوّبت روحي وجسمي طمعاً في خلوده ونُشورِهْ

عبدُ مالي أحظى به بعد جُهدٍ فإذا بي أنوء من ثقل نيرِه
أنا في قبضة العبودية العمـــياء أعمى مسيّر بغرورِه
إن جسمي عبدٌ لعقلي ، وعقلي عبدُ قلبي ، والقلب عَبد شعورِه

ترى أن شاعرية فوزي العبقري قد سلطت إشعاعها الهادئ الجبار على الحياة تسليطاً دقيقاً ؛ فإذا الحياة على رحبها ليست متسعة له ، فهو من هذه الدنيا في «دنيا !» لا يملك فيها من ضروب التسلية إلا أن يهتف :

ليت شعري ما الشاعر ابن لهذي الـ أرض إلا باحمه وبعظمِهْ
هو منها وليس منها فما زا ل غريباً ما بين أبناء أُمّـهْ

وكأني بهذا الشاعر ، في ضوء نظرته للحياة ، قد لمح لأول مرة موطن روحه الذي أنزلته فيه عروس قوافيه ، بعيداً عن الوجود وظُلمه . . . أو على الأصح ، عرف الموطن اللائق بروحه وهو محلق :

« في عُبابِ الفضاء فوق غيومِهْ فوق نسرهْ — ونجمـتِهْ
حيث بثّ الهوى بثغر نسيمِهْ كل عطرِه — ورقّـتِهْ
موطن الشاعرِ المحلّقِ منذ الـ ـبدء لكن بروحه لا بجسمِهْ
أنزلتهُ فيه عروسُ قوافيـ ـهِ بعيدًا عن الوجود وظُلمِهْ

واستوى فوزي على غارب بساطه . . . وها هو ذا نشوان في حُلمه الماتع الجميل يُطلق العنان لجواد الأثير متغنياً بهذا النشيد :

بين روحي وبين جسمي الأسيرِ كان بعدٌ — ذقتُ مُرَّهْ
أنا في الأرض . . . وهي فوق الأثيرِ أنا عبدٌ — وهي حُرَّهْ

وها هو ذا « شاعر الطيارة » نشوان في نزهته العلوية المغبوطة يُطلق العنان لمركبه الهوائي منشداً :

يا طيورَ السماءِ في الريح روحي بيَ جرياً — على الجَلَدْ
وبجسمي طيري إلى حيث روحي فيه تحيا — بلا جَسَدْ

وتُلبي طيارة الشاعر سؤله فتندفع في الفضاء :

خبباً تارةً ، وطوراً وئيداً صُعدا مرّةً وأخرى نزولا

وتروح « طيارة » فوزي تندفع في تحليقها وإذ :

قال نَسرٌ لآخرٍ : أيُّ طيرِ هو هذا — ومن رفاقُهْ ؟
إن يكن قادماً إلينا لخيرِ ! فلماذا — علا زُعاقُهْ ؟
يا له طائراً بصورة شيطا نٍ يبثّ اللهيبَ بركانُ صدرِهْ
أهو منا ؟ لا ، لا ، فلم أرَ جبّا راً كهذا في الجو ما بين طيرهْ

وإذ جميع الطيور يجتمعن ويسألن بذعر ورعدة ... عن « الطائر الأرضي الضخم ! » الذي تجرأ في وقاحة على تخطي حدود مملكتهن المقدسة ، وحين يعلمن أنه « الإنسان ! » يستعذن بالله من شره وشرّ استعماره ، ويقررن الحرب والاستماتة في الدفاع والقتال ، وتنشب المعركة التي يصف الشاعر هولها :

ردّدتْ في الأثير صيحة حربٍ ملأته بنسرِهِ وبصقرِهْ
وإذا بي ما بين أجنحةٍ سُودٍ على الأفقِ ، حجبّتْ وجهَ بدرِهْ
طوّقتني بكل فاغرِ شدقٍ صامد لي بمخلبيه وظفرِهْ

ولكن شاعرنا الشاب يمقت الحرب كل المقت ، ولا يمجّد انتصار القوة المادية ؛ لذلك راح يحاول إقناع أسراب الطير أنه لم يجئ مستعمراً وليس هو إلا شاعراً يائسًا هارباً من الأرض ولائذاً بالجو ليستحم جسمه بنوره :

لا تخافي يا طيرُ ما أنا إلا شاعر تطربُ الطيورُ لشعرِهْ
زارك اليومَ متعباً يُنشد الرا حة في هدأةِ السكون وسحرِهْ
فرَّ عن أرضه فرارك عنها من أذى أهلها وتنكيلِ دهرِهْ

. . .

ألفَ اليأسَ قلبُهُ ، فهْوَ واليأ سُ يحاكي بثينةً وجميلا

وإذا اليأسُ صدَّ عنه قليلًا راح يبكي على نواهُ طويلا

عند هذا الإنشاد والعتاب. . . تهدأ ثائرة الطير وتطمئن على حريتها فتهبُ الشاعر « فيزا . . . » للسير في مملكتها فينطلق الشاعر حرًّا في طبقات الجو لا يكاد يستقر بينهنَّ في سماء إلا ليطلع على سماء . . . حتى صار قرب النجوم :

وانبرتْ نجمةٌ لأخرى تقولُ: منْ يحوم — من البعيد ؟
أهو نجمٌ مذنَّبٌ ؟ أم دخيلُ ؟ في النجوم — وما يريد ؟
وإذا نجمةٌ تجيب : وقاك الـ ـبعد أختي شر انطلاق جناحِهْ
هو تحت السديمِ أعجز عن أن يبلغ النجمَ فوق متن رياحِهْ
لا تخافي منه وخلّيه يعلو فقريباً يهوي صريع كفاحِهْ

وسرعان ما هبَّ « شاعر الطيارة » إلى إزالة المخاوف وتبديد الهواجس بقوله :

إيه يا نجمتي ألم تعرفيني شاعرًا ينصت الدجى لنواحِهْ
كم ليالٍ في الروضِ أحييتُها أبـ ـكي وأشكو إليك بين أقاحِهْ
سامحَ الله فيك قلباً نسيًّا هو في الكون مثل قلب مِلاحِهْ

ولما عَلَتْ الطيارة طبقات متصاعدة ، وأوغل « النسر » في تحليقه ، رأى في الجو

حشداً من الأرواح وأسمعه خياله حديث هذه الجماعة فاستراح إليها :

وسرى في عوالم الأرواحِ   من قدومي — شبه همسِ
إذ تنسمنَّ من خفوق جناحي   في السديم — ريح أنس
فتألبن حول جسمي جماعا   تٍ ملأن الجو الفسيح دويّا
وإذا بي أعي هنالك أشيا   ء ولما حدَّقتُ لم أرَ شيّا
فكأني في الحلم نشوان صاحٍ   تتوالى رؤى الخيال عليّا . . .
طوّقتني الأشباح، هاهي حامت   ثم أهوت ترفّ بين يديّا
إنها كاللهاث نفحاً ولفحاً   وكموج الشعاع نشرًا وطيّا
هي كالوهمِ ألبستْهُ خيوطُ الـ   ـفكرِ ثوباً من الخيال جليّا
لم يزلْ صوتُها إلى اليوم في أذ   ني ، وأنفاسها على شفتيّا
إنّما عند وصفها خانني الفكـ   ـر وألقى على بيانيَ عيّا
يا له عالمًا هناك بعيدًا   قرّبتْهُ عروسُ شعري إليّا
فتنبَّهتُ من ذهولي وأصغيْـ   ـت لعلي أجلو هناك خفيّا
فسمعت الذي (توشوشه) الأر   واح عني وما تفكر فيّا

وقفت عند هـذه (الوشوشة) . . . وهذه الأبيات . . . حائراً أسائل نفسي : أشاعر عربي ناظمها ؟ أم شاعر من الغرب ؟ وإذا كانت « الطيارة » من وحي أبناء الغرب . . . ومن صنعهم . . . فهل استطاع شعراؤهم أن يصفوها أحسن مما وصفها شاعرنا الملهم الذي نبكيه ! حسبنا هذه الملحمة الفواحة العبير حجة نقرع بهـا من يرمي العربية بالقصور عن الوصف ومجاراة المدنية الحاضرة !

تلوت مرة على مسمع شيخ أدباء فلسطين الأستاذ خليل السكاكيني نمـاذج من ملحمة « الطيّارة » فصاح من فرط إعجابه وزهوه : « ما أحرى هـذه الأبيات أن تقابل في عصرنا الحاضر بالسجدة الشعرية التي كان العرب القدماء يقابلون بها الشعر الجيِّد البليغ ، بل ما كان من حق ملحمة المعلوف النابغ أن تضاف إلى (المعلقات العشر) مكتوبة بماء الذهب لو أدركت الجاهلية . . . ! » .

ولا يفوتني ، وقد شارفت النهاية من حديثي عن فوزي ، الإلماع إلى ناحية هامة من نواحي هذا الهادم . . . المجدد . . . أعني بها ناحية — التصوير الفني — الشائعة في شعره . ولئن كان التصوير أدلَّ أنواع الشعر على مقدرة الشاعر وفنه وقوة خياله إن هذا النوع لأفضل مقياس للشاعرية الخصبة . وكثيرون من الشعراء النوابغ وفقوا بأقوالهم ومثلوا بأقلامهم صوراً شعرية يعجز أمهر الرسامين عن إبرازها بالأصباغ وأنواع الطلاء . وهذا التمثيل الموفق بعض ما يجعل الشعر مقدماً على سواه من الفنون .

كان فوزي دقيقاً في تصوير ما تقع عليه عيناه ، فإذا عرضت له صورة عالجها بقلمه وعاجلها بعدسة خياله ، فتخرج للناس وثّابة الحركة ، دفاقة الحيوية والنشاط ، وتثب إلى الذهن وثباً من وراء الحروف والنقاط . . . فاسمعه يصف لك الطيارة التي امتطاها في نزهته الجوية من ساحل « كواروجا » :

هي طيرٌ من الجماد كأن الـــــجنَّ في صدرها تحثّ خيولا
حَمْحَمَتْ تضرب الرياح بنعليـــــها فشقَّت إلى السماء سبيلا
ثم مدَّت إلى النجوم جناحيـــــن وجرّت على السحابِ ذيولا
غرقت في الأصيل حيناً وعامت بعد حين تعلو قليلاً قليلا
ترتدي من دخانها بردة الليـــــل وتاقي عن منكبيها الأصيلا
وعليها من الشرار نجوم عقدت حول رأسها إكليلا

وإذ أقف مشبوب الإعجاب والذهول أمام هذه الصورة التي رسمتها ريشة فوزي للطيَّارة ، أعود بك إلى صفحات سبقت هـذا الفصل فنقف أمام قصيدة « غرناطة . . ! » التي طالعتك بها لنتلو بيتين منها يصوران لك جارية بارعة الرقص . . . من أولئك الفاتنات اللائي جاء وصفهنَّ الخلاب في كتاب « ألف ليلة وليلة » وقد نسجت قدماها العاريتان البضتان رقصات شرقية كلها سحر وإغواء ،

محاكي نقوش الطنافس الشرقية الموشاة بأزهى الخيوط وأبدع الأصباغ :

إذ الجواري خاطراتٌ على سجَّادة ، جارية جاريه
أروعُ ما في الشرق من رقصه تنسجه أقدامها العارية

أهكذا أوحى الفن إلى فوزي الفنان صورة الطيارة التي امتطاها في نزهته الجوية المانعة ، وعند هبوطه من عالم الأرواح والوشوشات .... رسم بريشته هذه الصورة الدقيقة الناطقة . ثم اسمعه يمثل لك غرامه بدخينة تبغ وطريقته في تدخينها :

... وألثمها لا لثمة الوجدِ ، إنما لماماً ، كتقبيلِ الفراشةِ للوردِ

ويقول بعد ذلك مخاطباً حبيبته :

... أراك خيالاً في ضبابِ دخانِها تغلغل من أحلامي البيض فى بُردِ
أرى فيه حيناً : شكل عين جميلةٍ وألمح حيناً فيه تكويرة النهدِ

لما تُوفي اللورد « كارنارفون » مكتشف قبر « توت عنخ آمون » في مصر رثاه أمير الشعراء المغفور له أحمد شوقي بك بقصيدة رائعة .

وحملت الصحف مرثاة شوقي إلى المرحوم فوزي وهو مقيم في البرازيل فعارضها بقصيدة مطلعها :

لا القبرُ مسحورٌ ولا في بابهِ رَصدٌ يذودُ هناك عن أصحابهِ

ومنها :

أيهانُ فرعونُ الكبيرُ بقبرهِ وهو العزيز بملكهِ وجنابهِ ؟
أفما رأيت أمامه وحيالَهُ حرسَ البلاطِ مدجَّجاً بحرابهِ
هو صامتٌ لكنه في صمتهِ أقوى وأبلغ منهُ في إعرابهِ
أعيا الفناءَ فلم ينله ولم يزلْ متألّقَ اللمعانِ نور إهابهِ
الروح هائمةٌ على تابوتهِ والجسمُ رطبُ العودِ في جلبابهِ
فترى اللظى متنفّساً بطعامهِ وترى الحبابَ مشعشعاً بشرابهِ

ولما وقع نظر شاعر الأقطار العربية خليل بك مطران على القصيدة قال : لكأن فوزي في « وادي الملوك ! »

ومن هنا يبدو لك السمو والتحليق اللذان بلغهما فوزي في وصفه مقبرة « وادي الملوك »

***

ومن آثار فوزي الشعرية التي تستهويك مبنى ومعنى قصيدة « القفاز المفقود » وهي هذه :

مرتُ به في الأرضِ والثلجُ باسطٌ عليه جناحَيْهِ النقيّين كالطهرِ
وقد بثَّ فيه البردُ والثلجُ رعشةً «كما انتفض العصفورُ بُلّل بالقطرِ»
فساءلته عمن رماهُ فلم يحرْ جواباً، بلى كان الجوابُ شذى العطرِ
تضوّع منه في خلال نعومةٍ ونمنمةٍ نمَّتْ على ذلك السرِّ
فلم يبقَ من ريبٍ بأن التي رمتْ به (غادةٌ) أو ضاعَ منها ولم تدرِ
فيالك قفَّازًا طريحاً على الثرى يعاني عذابَ البردِ والذلِّ والهجرِ
نعمتَ بيمناها وكم لكَ قبلةٍ على الثغرِ منها والغدائرِ والصدرِ
وكم مرَّةٍ منَّتْ عليك بزفرةٍ وكم مسحتْ دمعاً على خدِّها يجري
إلى أن قضى بالبعد دهري عليكما فلا حيلةٌ فيما قضتْ حكمة الدهرِ
ولكن عزاءً عن بياضِ يمينها بثلجٍ حكاها بالبياضِ وبالنشرِ
ويهنيك ثلجٌ عذَّبتك ببردِهِ فكم عذَّبتْ قلب المحبِ على جمرِ
لئن صحَّ حسباني وكنت لغادةٍ فيا سعدَ حظي منك باللمس والذكرِ
وإن كنتَ يا قفَّازُ ملك فتًى فيا ضياع الذي أنشدت فيك، من الشعرِ

أية صورة من صور فوزي الشعرية ، بل أية لوحة من لوحاته الفنية لا تنبض بالحركة ... وتتميز بالوثب والحيوية ... ؟ بل أية ملحمة من ملاحمه لا تفيض بالوصف المفعم ! وقد خلع عليها فوزي من خياله السامي غلالة أنيقة لمّاعة زاهية التلاوين ؟

شعرهُ حكمةٌ وصدقُ خيالٍ وجمالٌ وروعةٌ ورصانَهْ

أتمنى لو كانت لي عبقرية ديموستين وشيشرون وروعة بيانهما لأفي هـذا الشاعر الملهم بعض حقه على الشعر العربي المعاصر ، من الوصف والتصوير ، حتى أترك في نفسك أسمى فـكرة عن شاعر صوّب الزمان الغادر إلى صدره من كنانة بطشه سهماً مريشاً فهوى « النسر » إلى الحضيض مهيض الجناح ، دامي الجراح ، شهيد الـكفاح ... !

على بساطِ الرّيح

ملحمة ذات أربعة عشر نشيدًا

النشيد الأول

ملكٌ في الهواء

في عبابِ الفضاءِ فوق غيومِهْ
فوقَ نسرِهْ
ونَجْمتِهْ
حيث بثَّ الهوى بثغرِ نسيمِهْ
كلَّ عطرِهْ
ورقّتِهْ

✡✡✡

موطنُ الشاعرِ المحلقِ — منذُ
البدءِ لكنْ بروحِهِ لا بجسمِهْ

أنزلَتْهُ فيهِ عروسُ قوافيهِ
بعيدًا عن الوجودِ وظُلمِهْ

ملكٌ قبّةُ السماءِ له قصرٌ
وقلبُ الأثير مسرحُ حكمِهْ

ضاربٌ في الفضاءِ موكبهُ النورُ
وأتباعُهُ عرائسُ حلمِهْ

ملكهُ ركنُهُ الهواءُ وما أقواهُ
ركناً قامَ الخلودُ بدعمِهْ

عرشُهُ سدّةُ السحابِ عليها
نفضَ الليلُ كلَّ رهبةِ رسْمِهْ

تاجُهُ هالةٌ ينضّد في فضّتها
الأفق بدرَهُ قربَ نجمِهْ

والدجى طيلسانُهُ فاح كافورُ
دراريهِ فوقَ عنبرِ فحمِهْ

والثريّا في كفّهِ صولجانٌ
درّه لمّـــهُ الصباحُ بكمّهْ

ملكٌ طائرٌ بغير جناحيْنِ
بأمرِ الخيالِ يقضي وباسْمِهْ

يا جناحَ الخيالِ أقوى جناحٍ
أنت يُلوَى ظهرُ الرياحِ لصَدْمِهْ

ليتَ شعري ما الشاعرُ ابنٌ لهذي
الأرضِ إلا بلَحْمِهِ وبعَظْمِهْ

فإذا اختارَ هجرَها برضاهُ
أفما جاءَها مقودًا برغْمِهْ

هوَ منها وليس منها فما زالَ
غريباً ما بين أبناءِ أُمّهْ

النشيد الثاني

رُوح الشّاعِر

أيُّ روحٍ في بردة الشعراء

رفعتهم

على الهواء

أبعدتهم عن عالم الأحياء

قربتهم

من السماء

✡✡✡

أنتِ يا روحَهُمْ من النورِ ذرَّاتٌ

أضاءَتْ في الكونِ في عالميْهِ

تصلُ الأرضَ والسماءَ بنهرٍ

غَمرَ الحسنُ والهوى ضفّتيْهِ

لستِ من عالمِ التراب وإن كنتِ
تقمّصتِ بالترابِ عليـــهِ

أنتِ من عالمٍ بعيدٍ عن الأرضِ
يفيضُ الجلالُ عن جانبَيْهِ

نسمة الشعرِ أنتِ فيه تبثّين
أريج الشعور في بردتيْهِ

هو فردوسكِ السحيقُ فلا الإثمُ
ولا الشرُّ يبلغانِ إليـهِ

وفتى الشعرِ فيه يستنزلُ الوحيَ
بيانًا يحثو الخلودُ لديْهِ

حافرًا باللّظى على مصحفِ
الأفقِ سطورًا تنير في دفّتيْهِ

ما احمرارُ الأصيلِ غيرُ لهيبٍ
شعّ من قلبهِ على مقلتيْهِ

وركامُ السَّحابِ غيرُ دخانٍ
نفثتْهُ الهمومُ من شفتَيْهِ

ما أنينُ الرياحِ غيرُ زفيرٍ
نزعتْهُ الرياحُ من رئتيْهِ

ونواحُ الطيورِ غيرُ عويلٍ
نقلتْهُ الطيورُ عن أصغريْهِ

ما ندى الفجرِ غيرُ لؤلؤ دمعٍ
رشفَتْهُ الأزهارُ من محجريْهِ

وبريقُ النجوم غيرُ شظايا
كأسِ حبٍّ تحطّمتْ في يديْهِ

النشيد الثالث

العيد

بين روحي ، وبين جسمي الأسيرِ

كان بعـــد

ذقت مُرَّهْ

أنا في الأرض ، وهي فوق الأثيرِ

أنا عبـــد

وهي حُرَّهْ

***

أنا عبدُ الحياةِ والموتِ ، أمشي

مُكرهاً من مهودِها لقبورِهْ

عبدُ ما ضمّتِ الشرائعُ من جورٍ

يخطُّ القويُّ كلَّ سطورِهْ

بيراعٍ دمُ الضعيفِ له حبرٌ ،
ونوحُ المظلومِ صوتُ صريرِهْ

أنا عبدُ القضاءِ ، تملأ نفسي
رهبةٌ من بشيرِهِ ونذيرِهْ

عبدُ عصرٍ من التمدّنِ ، نلهو
ضلّةً عن لبابِهِ بقشورِهْ

عبدُ مالي ، أحظى به بعد جهدٍ
فإذا بي أنوءُ من ثقلِ نيرِهْ

عبدُ إسمي ، ذوّبتُ روحي وجسمي
طمعاً في خلودِهِ ونشورِهْ

عبدُ حبّي ، أنزلتُهُ في فؤادي
فكوى أضلعي بنارِ سعيرِهْ

أنا في قبضةِ العبوديةِ العمياءِ ،
أعمى مســـيَّرٌ بغرورِهْ

إنَّ جسمي عبدٌ لعقلي ، وعقلي
عبدُ قلبي ، والقلبُ عبدُ شعورِهْ

وشعوري عبدٌ لحسّي وحسّي
هو عبدُ الجمال ، يحيا بنورِهْ

كلُّ ما بي في الكونِ أعمى ومنقادٌ
على رغمِهِ لأعمى نظيرِهْ

غير روحي فالشعرُ فكَّ جناحَيْها
فطارتْ في الجوِّ فوقَ نسورِهْ

تنتحي عالمَ الخلودِ ، لتحيا
حرَّةً بين روضِهِ وغديرِهْ

النشيد الرابع

حلم فحقيقة

يا طيورَ السماءِ في الريحِ روحي

بيَ جـرياً

على الجَلَدْ

وبجسمي طيري إلى حيث روحي .

فيـه تحيا

بلا جَسَـدْ

✡✡✡

هو حلمٌ مجّنَحٌ ، رافقَ الشاعرَ

يطوي الأجيالَ جيلاً فجيلا

خلعتْ يقظةُ العقولِ جناحَيْنِ

عليـهِ يحيّرانِ العقولا

ما هما من خرافةٍ وخيالٍ
بل هما من حقيقةٍ وهيولي

صعّدِ الطرفَ في الأثيرِ تجدْني
قاطعاً في الأثيرِ ميلاً فميلا

خبباً تارةً ، وطورًا وئيدًا
صُعُدًا مرّةً ، وأخرى نزولا

فوق طيّارةٍ على صَهَواتِ الريحِ
راحتْ تروّضُ المستحيلا

هي طيرٌ من الجمادِ كأنَّ
الجنَّ في صدرِها تحثُّ خيولا

حمحمتْ تضربُ الرياحَ بنعلَيْها
فشقّتْ إلى السماءِ سبيلا

ثم مدَّتْ إلى النجومِ جناحَينِ
وجرَّتْ على السحابِ ذيولا

غرقتْ في الأصيلِ حيناً ، وعامتْ
بعد حينٍ تعلو قليلاً قليلا

ترتدي من دخانِها بردةَ الليلِ
وتلقي عن منكبيْها الأصيلا

وعليها من الشرارِ نجومٌ
عقدتْ حول رأسِها إكليلا

حلّقي ، حلّقي ، وألقي على الأفلاكِ
رعباً وروعةً وفضولا

واشهدي في الطيورِ كرّاً وفرّاً
واسمعي في النجومِ قالا وقيلا !

النشيد الخامس

بين الطيور

قال نسرٌ لآخرٍ : « أيُّ طيرِ

هو هــذا ؟

ومن رفاقه ؟

إن يكن قادماً إلينا لخــيرِ

فلمــاذا ؟

علا زعاقه ؟

***

يا لهُ طائرًا بصورةِ شيطانٍ

يبثُّ اللهيبَ بركانُ صدرِهْ

أهْوَ منّا ؟ لا لا فلم أرَ جبّارا

كهذا في الجوِّ ما بين طيرِهْ

إنَّ قلبي لموجسٌ منـه شرًّا
رُح بنا نجتلي حقيقةَ أمرِهْ »

« آدميٌّ هذا – أجاب أخوه –
جاء يستعمرُ الأثيرَ بأسرِهْ

كرةُ الأرضِ عن مطامعهِ ضاقتْ
فخطَّتْ هنا مطامحُ فـكرِهْ

نحن لم نهجر البسيطةَ ، إلاَّ
هرباً منه واجتناباً لشرِّهْ

قمْ بنا نحشدِ الطيورَ وننقضَّ
عليه ، نجزيه من مثلِ غدرِهْ ! »

رُدِّدَتْ في الأثيرِ صيحةُ حربٍ
ملأتهُ بنسرِهِ وبصقرِهْ

هو حشدٌ أثار ضربُ خوافيهِ
غبارَ السحابِ يعمي بذرّهْ

وإذا بي ما بين أجنحةٍ سودٍ
على الأفقِ حجبَّتْ وجهَ بدرهْ

طوّقتني بكل فاغرِ شدْقٍ
صامدٍ لي بمخلبيهِ وظفرهْ

– لا تخافي يا طيرُ ما أنا إلّا
شاعرٌ تطربُ الطيورُ لشعرهْ

زارَكِ اليومَ متعباً ينشدُ الراحةَ
في هدأةِ السكونِ وسحرهْ

فرَّ عن أرضِهِ فرارَكِ عنها
من أذى أهلِها وتنكيلِ دهرهْ

النشيد السادس

رَمْز الألم

أنظريهِ يمشي وفي خطواتِهْ
نزواتٌ
من الألمْ
عاثرِ الجد ، جدَّ تحدو بذاتِهْ
نزعاتٌ
إلى العـــدمْ

***

غمرتْهُ الأحلامُ بالشَّفقِ الورديِّ
يغريهِ بالمنى تعليلا

وتلاشتْ حلماً فحلماً ، إلى اللاشيء
تمشي به قليــــلاً قليــلا

هو في ميعةِ الشبابِ ولو حدّقتِ
فيـه أبصرتِ ، شيخاً هزيلا

بقوامٍ كأنَّ قاصمةَ الظهر
أناختْ عليه حملاً ثقيلا

وجبينٍ ألقتْ عليه شجونُ
النفسِ ظلاً من العبوسِ ظليلا

فهو لا يعرفُ التبسُّمَ إلاَّ —
عنـد ما يستعيدُ حلماً جميلا

ألف اليأس قلبه ، فهْوَ واليأس
يحاكي بثينةً وجميلا

وإذا اليأسُ صَدَّ عنه قليلاً
راحَ يبكي على نواهُ طويلا

وإذا ما النسيمُ مرَّ عليهِ
فعليلٌ أتى يعودُ عليـلا

حائرَ الطرفِ ، شاردَ الفكرِ يحكي
مدلجاً في الظلامِ ضلَّ السبيلا

تاه في عالمِ الخيالِ ، فضاعتْ
نفسهُ وهيَ تنشدُ المستحيلا

حوّل الأرضَ عالماً علويًّا
قاطرًا من وحولها سلسبيلا

ملأ العالمَ السماويَّ شدْوًا
منزلاً منـه للورى إنجيلا

هاكِ عقدَ النجومِ بين يديهِ
صار بعد انفراطِهِ إكليلا

النشيد السابع

قربَ النجوم

وانبرتْ نجمةٌ لأخرى تقولُ :

« من يحوم ؟

من البعيد ؟

أهو نجـــمٌ مذنّبٌ أم دخيلُ

في النجوم ؟

وما يريد ؟

✲✲✲

هو ينقضُّ كالصواعقِ ، منطادًا

إلينا ، والهولُ ملءُ وشاحِهْ

بين برقٍ من الشراراتِ ومَّاضٍ

ورعدٍ ملعلعٍ في صياحِهْ

أنظريهِ يدنو ويدنو ، فهل غلغلَ
في جوِّنا بقصدِ اكتساحِه ؟ »

يُنطق الخوفُ كلَّ عيٍّ وهذي
رعشةُ النجم عجّلتْ بافتضاحِهْ

وإذا نجمةٌ تجيبُ : « وقاكِ البعد
أختي ، شرَّ انطلاقِ جناحِهْ

هو تحت السديمِ أعجزُ عن أن
يبلغ النجمَ فوق متنِ رياحِهْ

هو مخلوقُ عالمٍ إسمُهُ الأرضُ ،
يغطّي الشقاءُ كلَّ بطاحِهْ

عالمٍ ما شعارُهُ غير أن الحقَّ
للقـــوَّة التي في سلاحهْ

لا تخافي منه ، وخلّيه يعلو
فقريباً يهوي صريعَ كفاحِهْ ! »

— إيهِ يا نجمتي ألم تعرفيني
شاعرًا ينصتُ الدجى لنواحِهْ ؟

كم ليالٍ في الروضِ أحييتُها
أبكي ، وأشكو إليك بين أقاحِهْ

ساكباً في الفؤادِ من طرفكِ
السيَّالِ بالنورِ بلسمًا لجراحِهْ

وسواد الظلامِ في قلمي حبرٌ
أوشّي به بياضَ صباحِهْ

سامحَ الله فيك قلباً نسيّا
هو في الكونِ مثلُ قلبِ ملاحِهْ

النشيد الثامن

أوراق مُتناثرة

نجمةَ الليلِ ، رحمةً ، فضلوعي

من شجوني

تتمزّق

كفكفي السيلَ ، إنه في دموعي

من عيوني

يتدفّق

٭٭٭

واذ كريني بين الكواكبِ وادعي

لي ، عسى يهتدي إليّ السلامُ

عشتُ بين المُنى ، يراودُ نفسي

خلّبٌ من طيوفِها وعقامُ

أقتفيها وفي يديّ فؤادي ،
ثم ألوي وفي يديّ حطامُ

أيُّ حلمٍ سبكْتُهُ ذهبيًّا
لم تذِبْهُ بنارِها الأيامُ

ورجاءٍ حبكتُهُ من خيوطِ
النورِ ، لم ينسدلْ عليه ظلامُ ؟

أيُّ عودٍ حملتُهُ للتلهّي
لم تقطِّعْ أوتارَه الآلامُ ؟

ونشيدٍ أوقعتُهُ للتأسّي
لم يعكّره بالأنين الغرامُ

أيُّ كأسٍ قرّبتُهُ من شفاهي
لم تحل حنظلاً عليه المدامُ ؟

وفؤادٍ ذوَّبتُ فيه فؤادي
لم يضعْ عنده لعهدي ذمامُ ؟

أيُّ طيفٍ عانقتُهُ في منامي
لم يكلّله دمعُ عيني السجامُ ؟

وهناءٍ زرعتُهُ في ضلوعي
لم يكن منه للذبول طعامُ ؟

ليت شعري ، والليلُ يعقبهُ
الفجرُ، متى يعقبُ البكاءَ ابتسامُ ؟

ضاع عمري سعياً وراءَ رسومٍ
خطَّطتْها في الشاطئِ الأقدامُ

عشتُ أبني على الرمالِ وهل يثبتُ
ركنٌ، له الرمالُ دعامُ ؟

النشيد التاسع

في عالم الأرواح

وسرى في عوالمِ الأرواحِ
من قدومي
شبه همسِ
إذ تنسّمنَ من خفوق جناحي
في السديمِ
ريح أنسِ

✡✡✡

فتألّبنَ حول جسمي جماعاتٍ
ملأنَ الجوّ الفسيحَ دويّا

وإذا بي أعي هنالكَ أشياءَ
ولمّا حدّقتُ لم أرَ شيّا

فكأني في الحلمِ نشوانُ صاحٍ
تتوالى رؤى الخيالِ عليّا

ما لعيني والنورُ شعَّ بقربي
لم تميّزْ إلا فراغاً خليّا ؟

طوّقتني الأشباحُ ، ها هي حامتْ
ثم أهوتْ ترفُّ بين يديّا

ولها كاختلاجِ أجنحةِ النَّحلِ
أزيزٌ يطنُّ في أُذُنيّا

إنها كاللهاث نفحاً ولفحاً
وكموجِ الشعاعِ نشرًا وطيّا

غمرتْني بالغيمِ ينضحُ طلاً
واحتوتني بالريحِ تنشرُ رَيّا

هي كالوهم ألْبَسَتْهُ خيوطُ
الفكرِ ثوباً من الخيالِ جليّا

لم يزلْ صوتُها إلى اليومِ في
أُذْني ، وأنفاسُها على شفتيّا

إنما عند وصفِها خانني الفكرُ
وألقى على بيانيَ عيّا

يا لهُ عالماً هناكَ بعيداً
قرَّبتهُ عروسُ شعري إليّا

فتنبّهتُ من ذهولي وأصغيتُ
لعلّي أجلو هناكَ خفيّا

فسمعتُ الذي توشوشهُ الأرواحُ
عنّي ، وما تفكّر فيّا

النشيد العاشر

حِفنة التّراب

قال روحٌ : « حذارِ يا أترابي

واطردوه

عن السماءْ

هو في الأرضِ حفنةٌ من ترابِ

فأبوهُ

طين وماءْ

✡✡✡

هو من نفخةٍ كَفَتْ لتَجَلّيْهِ

وتكفي بذاتِها لاحتجابِهْ

وكما كان أصلهُ من ترابِ

الأرضِ ، يغدو مصيرُه لترابِهْ

ليتَهُ عاد للثرى مثلما جاءَ
نقيًّا بنفسِـــــهِ وإهابِهْ

جاء والحسنُ والرواءُ رفيقاهُ
وثوبُ العفافِ كل ثيــابِهْ

وتولَّى يقودهُ الإثمُ والداءُ
إلى القبرِ في ربيعِ شبابِهْ

هو يحيا للشرِّ ، فالشرُّ يحيـا
أبدًا ، حيث حلَّ شؤمُ ركابِهْ

وهو لا ينفعُ البسيطةَ إلا
حين يثوي في القبرِ بين رحابِهْ

حين يمتصُّهُ الثرى فيغـذّي
منه ما في الأديمِ من أعشابِهْ

يا لعمري كلُّ النباتِ الذي في
الكونِ من زهرِهِ إلى لبْلابِهْ

ليس إلا عصيرَ أجسامِ من
ماتوا فزانوا الثرى بأجملِ مابِهْ

كندَى الفجرِ سالَ فاشتفَّهُ الترْبُ
فحالت وحلاً لآلي حبابِهْ

بخّرتْهُ ذُكاءُ فاسترجعتْهُ
صافياً للأثيرِ عينُ سحابِهْ

فهو بين السحابِ ثانيةً قطْرٌ
نقيٌّ يحيي الثرى بانسكابِهْ

تلك حالُ الإنسانِ حيًّا وميْتاً
رُبَّ خيرٍ ألشرُّ من أسبابِهْ »

النشيد الحادي عشر

رقي كاذب

قال ما قاله ، وفرَّ لفــورهِ

يتــوقّى

تقــرّبي

فإذا آخرُ يقــول بدورهِ :

« قلتَ حقّاً

بمذهـــبي

***

أنا عن وصفِ شرّهِ عاجزٌ

واللهِ ، مهما أفضتُ في تبيانهْ

ما دعوةُ الإنسانَ من أنسهِ

لكنْ دعوةُ الإنسانَ من نسيانهْ

نسيَ الخيرَ حين أوغل في الشرِّ
فداس الضمير َفي عصيانِهْ

ملأتْ قلبهُ الأفاعي فلا يُسمع
غير الفحيحِ في خفقانِهْ

حَسَدٌ ناهشٌ بقيَّةَ ما في
نفسه من إبائِهِ وحنانِهْ

طَمَعٌ يقذفُ اللهيبَ حوالَيْهِ
فيعمي عيونَهُ بدخانِهْ

وأنانيَّةٌ تحلُّ له القتل
لتحقيق غايةٍ في كيانِهْ

أعطيَ النطقَ والحجى ميزةً
تفرقهُ في الوجودِ عن حيوانِهْ

فإذا بالأذى وليدُ حجاهُ
وإذا بالشرورِ بنتُ لسانِهْ

عاث في أرضِهِ فخالتْ جحيماً
فأتى الخلدَ عائثاً في جنانِهْ

زجَّ بالعلم في الفضاءِ طيورًا
من جمادٍ ، يديرُها ببنانِهْ

ما بناها إلا لهدمِ المباني
ولسفكِ الدماءِ في طيرانِه

ليتهُ لم يكن ذكيًّا فكلٌّ
الويلِ في الكونِ من نهى إنسانِهْ

ليت عمرانَهُ تأخّرَ أجيالاً
فكلُّ الخرابِ في عمرانِهْ »

النشيد الثاني عشر

كفارة الشّاعر

وتجلَّتْ روحٌ على القربِ منّي

رمقَـــتْني

بلا غَضَبْ

خلتُهـا أقبلتْ تدافعُ عني

صـحَّ ظنّي

ولا عَجَبْ

***

هي روحي جاءت تخلّصني من

غضبِ العالمِ الفخورِ بشمسِهْ

طوّقتني بكلِّ عطفٍ وصاحتْ :

« أخواتي رفقاً بهِ وببؤسِهْ

هو بالرغمِ عنهُ من عالمِ الأرضِ
تزيَّا بشكلِ أبناءِ جنسِهْ

سكنَ الأرضَ مرغماً وهْو لو
خُيِّرَ، ما اختارَ غيرَ ظلمةِ رمسِهْ

إنَّ بين السريرِ والنعشِ خطْواتٍ
دعَوْها الوجودَ وهْي بعكسِهْ

عمرُهُ ليس غيرَ قطرةِ حبرٍ
ومضتْ من يراعِهِ فوق طرسِهْ

يتلاشى كالشَّمعِ -كي يعطيَ النورَ-
على هيكلِ الخلودِ وقُدْسِهْ

غدهُ مثلُ يومِهِ تلعبُ الأقدارُ
فيه ، ويومُه مثلُ أمسِه

غسلت عينهُ ، بما سكبتهُ
من ندى الدمعِ ، كلَّ أدرانِ نفسِهْ

والتظى قلبُهُ فطهَّر ، بالآلامِ
ما دنَّسَتْهُ شهوةُ حِسِّهْ

جاء من أرضِهِ يفتّشُ عني
بائساً فاخشعوا احتراماً ليأسِهْ

ودعوهُ معي في قُبُلاتي
شهد عطفٍ ينسيه علقمَ كأسِهْ »

. . . .

☆

. . . .

☆ حين دفع الشاعر كتابه للطبعة الجديدة أضاف إلى كل نشيد من الأناشيد السابقة بيتين ، وحالت وفاته دون متابعة الزيادة في كل من الأناشيد الثلاثة الأخيرة .

النشيد الثالث عشر

على بساطِ الرّيح

ووقفنا معاً بقلبِ السماء

نتمـلّى

من القبَـلْ

ما أحبّ اللقاءَ بعـد التنائي

فهو أحـلى

من الأمَلْ

☆☆☆

موقفٌ لا يمثّل الفكرُ أبهى

منه ، في نومِهِ وفي يَقظَاتِهْ

إذ جلسنا على بساطٍ من السُّحْبِ ،

يفوحُ الغرامُ من جَنَباتِهْ

تحت جوٍّ كأنَّهُ سِنَة النومِ ،
ترفُّ الأحلامُ في طبقاتِهْ

والنسيمُ العليلُ فوق لظى
أنفاسنا ، ساكبٌ ندى نفثاتِهْ

وعذارى الأرواحِ تنشدُ من بُعْدٍ
بصوتٍ ، أللهِ في نبراتِهْ

رافقتْهُ قيثارةُ الحبِّ فانسلَّ
أنينُ الأوتار في نغماتِهْ

فانتقلنا إلى فضاءٍ من البحرانِ ،
هاروتُ فيهِ بعضُ حماتِهْ

وملأنا من لفْحِ قُبلاتِنا الجوَّ ،
فعادتْ بالنَّفْحِ من قبلاتِهْ

ثم قمنا نجيلُ في الكونِ ، أبصارًا
أرتنا منه حقيقةَ ذاتِهْ

ننظرُ الناسَ من علٍ مثلما تنظر
نملاً يمشي إلى غزواتِهْ

ونرى الطودَ في السهولِ ، كما تبصرُ
فوق الترابِ ظلَّ حصاتِهْ

ونرى الموج في الخضمّ ، كما تلمحُ
جوًّا ، والسُّحْبُ في مرآتِهْ

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

النشيد الرابع عشر

على الأرض

تلك بضعٌ من الدقائقِ مرَّتْ

في خضمٍّ

من الخلودْ

هي مثل الأحلام زارت وفرَّت

أيّ حلمٍ

ترى يعود ؟

✡✡✡

وإذا بي أهوي إلى الأرضِ وحدي

بعد حرّيتي أكابدُ رقّا

تركتني روحي وعادتْ لمأواها ،

تشقُّ الشعاعَ في الجوِّ شقّا

فرأيتُ اليراعَ قربي يؤاسِيني
ويبكي لما لقيتُ وألقى

يا يراعي ما زلتَ خيرَ صديقٍ
ليَ — منذُ امتزجتَ بي — وستبقى

باسماً من سعادتي حين أهنا
باكياً من تعاستي حين أشقى

كم حبيبٍ سلا وعهدكُ باقٍ
فهْو أوفى من كل عهدٍ وأبقى

أنت رغم الجحودِ خلٌّ وفيٌّ
حوَّل المستحيل غولاً* وعَنْقا ...

رُبَّ دمعٍ كفكفْتَهُ من عيوني
سالَ حبراً في الطرسِ يخفقُ خفْقا

* إشارة إلى القول المعروف إن المستحيل ثلاثة : الغول والعنقاء والخل الوفي ، فكأن (المعلوف) يقول : «إنك يا قلمي تخرج من حكم هذه الثلاثة لأني عرفت فيك الخل الوفي» !

وعذابٍ نزعتَه من ضلوعي
أجَّ بين السطورِ يحرقُ حرْقا

وزفيرٍ حوَّلتـــــه لصريرٍ
ملأ الخافقين غربًا وشرْقا

يا يراعي رافقت كل حياتي
فارو عني ما كان حقًّا وصدْقا

أنا لم ألقَ مثلَ صمتكَ صمتا
حوَّلَتْهُ عرائسُ الشعر نطْقا !!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

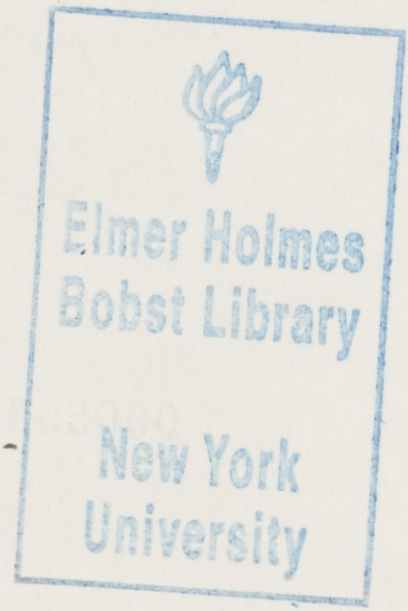
Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University

NYU - BOBST
31142 01706 5841
PJ7846.A537 Z53 1948
Sha´¿ir al